

الأمر

عناصر الموضوع

٦٢	مفهوم الأمر
٦٣	الأمر في الاستعمال القرآني
٦٤	الألفاظ ذات الصلة
٦٦	الأمر الإلهي في القرآن
٧٦	التعامل مع الأمر الإلهي وجزاؤه
٩٣	الأمر الإنساني وجزاء اتباعه
١٠٦	جزاء اتباع الأمر الإنساني
١١١	أوامر إبليس وذريته

مفهوم الأمر

أولاً: المعنى اللغوي:

الأمر: الشأن، وجمعه أمور، ومصدر أمرته: إذا كلفته أن يفعل شيئاً، وهو لفظ عام للأفعال والأقوال كله^(١)؛ يقال: أمر فلان مستقيماً وأموره مستقيمة، وإذا أمرت من أمر قلت: مر، وأصله أوامر، فلما اجتمعت همزتان، وكثر استعمال الكلمة حذفت الهمزة الأصلية فزال الساكن فاستغني عن الهمزة الزائدة، والهمزة والميم والراء أصول خمسة: الأمر من الأمور، والأمر ضد النهي، والأمر النماء والبركة بفتح الميم، والمعلم، والعجب^(٢).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

الأمر في الاصطلاح: طلب الفعل على جهة الاستعلاء، أو هو: «طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء»^(٣)، وعرف الجرجاني الأمر بقوله: «قول القائل لمن دونه: افعل»^(٤). ومن خلال ما سبق يتضح أن العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي هي علاقة العموم والخصوص، فالأمر في اللغة ينصرف على عدة معانٍ متباينة، أما الأمر في الاصطلاح فقد أتى بمعنى اصطلاحى يقتصر عليه.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٨٨.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ١٣٧، لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٢٧.

(٣) المحصول، الرازي، ٣/ ١٧، الإحكام في أصول الأحكام، الأمدي، ٢/ ١٤٠.

(٤) التعريفات، ص ٣٧.

الأمر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أمر) في القرآن (٢٤٨) مرة، يخص موضوعنا منها (٨٨) مرة^(١). والصيغة التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿قَالَ مَا مَنَّكَ اللَّهُ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]
الفعل المضارع	٤٠	﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٨٧]
فعل الأمر	٥	﴿خُذِ الْعَقْرَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]
اسم الفاعل	١	﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢]
صيغة المبالغة	١	﴿وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتُمْ رَحِيحًا﴾ [يوسف: ٥٣]
المصدر	٧	﴿وَلَوْ أَرْزَلْنَا مَلَكَ لَقَضَى الْأَمْرَ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ﴾ [الأنعام: ٨]

وجاء الأمر الذي جمعه أوامر في الاستعمال القرآني بمعنى: استدعاء الفعل بالقول من الأعلى إلى الأدنى^(٢). ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٧٨-٧٩.

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ١٧٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ النهي:

النهي لغة:

النهي ضد الأمر، ونهاه عن كذا ينهاه نهياً، أي: كف...، ونهى صديقه عن الخيانة، منعه وحذره منها^(١).

النهي اصطلاحاً:

النهي: ضد الأمر وهو: اللفظ المستعمل لطلب الترك على وجه الاستعلاء^(٢).

الصلة بين الأمر والنهي:

أن النهي يشترك مع الأمر في الدلالة على الطلب، إلا أن الأمر يراد منه طلب الفعل والإتيان به، أما النهي فيراد منه النهي عن الفعل والزجر عنه، فالنهي باعتبار اشتمال متعلقه على مفسدة كان مطلوب الترك، والأمر باعتبار اشتمال متعلقه على مصلحة كان مطلوب الفعل.

٢ الخبر:

الخبر لغة:

قال ابن فارس: الخاء والباء والراء أصلان: فالأول العلم، والثاني يدل على لين ورخاوة وغزير^(٣).

الخبر اصطلاحاً:

الخبر: هو الكلام المحتمل للصدق والكذب، والخبر: العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر، وفي الاصطلاح القرآني: ما يعبر به عن واقعة معينة^(٤).

الصلة بين الأمر والخبر:

الأمر: طلب الفعل على وجه الاستعلاء، والخبر: الكلام المحتمل للصدق والكذب، ونلاحظ أن هناك علاقة مترابطة بين المصطلحين، فالخبر يتضمن الأمر، والأمر يشمل الخير وغيره.

(١) انظر: المفردات، الراغب، ٨٢٧/١، المصباح المنير، الفيومي، ٦٢٩/٣.

(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني، ٢٤٨/١.

(٣) مقاييس اللغة، ٢٣٩/٢.

(٤) انظر: المفردات، الراغب، ٢٧٣، التعريفات، الجرجاني، ٩٦/١.

٣ الدعاء:

الدعاء لغة:

مأخوذ من مادة (دع و) التي تدل في الأصل على إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، ومن هذا الأصل الدعاء في معنى الرغبة إلى الله عز وجل، وهو واحد الأدعية، والفعل من ذلك دعا يدعو، والمصدر الدعاء والدعوى^(١).

الدعاء اصطلاحاً:

هو سؤال العبد ربه حاجته.
وقيل: طلب الأدنى من الأعلى تحصيل الشيء^(٢).

الصلة بين الدعاء والأمر:

الفرق بين الدعاء والأمر أن في الأمر ترغيباً في الفعل، وزجراً عن تركه، وله صيغة تنبيه عنه، وليس كذلك الدعاء، وكلاهما طلب، وأيضاً فإن الأمر يقتضي أن يكون المأمور دون الأمر في الرتبة^(٣).

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٣٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٠.

(٢) انظر، نزهة الأعين، ابن الجوزي ١/ ٢٩٢.

(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص ٢٣١.

الأمر الإلهي في القرآن

بين القرآن الكريم أنواع الأمر الإلهي، وتفرد الله تعالى بالخلق والأمر، وسوف يتناول البحث ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولاً: الله سبحانه وتعالى له الخلق والأمر:

إن العقل السليم قاضي لا محالة بأن الموجود لا بد له من موجد ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وأن المخلوق لا بد له من خالق، وأن الكون لا بد له من مدبر، ولا محالة بأن يكون الخالق غير المخلوق في صفاته وذاته وأفعاله، وأن هذا الخالق من مقتضيات ألوهيته وربوبيته أنه له الخلق والأمر، الإيجاد والتدبير والحساب والجزاء، فهو سبحانه المتحكم في الأكوان والعقول والقلوب وسائر الموجودات والأشياء، وبالجمله فإنه ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ

كَفَرُوا بِعَاثِلَةِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣].

فالله سبحانه خالق الكون ومدبره.

قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

والخلق: إيجاد الشيء من العدم، والأمر: التدبير والتصرف على حسب الإرادة لما خلقه، فهو سبحانه الخالق والمدبر للعالم

على حسب إرادته وحكمته، لا شريك له في ذلك، فهو سبحانه هو الذي خلق الأشياء كلها، ويدخل في ذلك السموات والأرض وغيرهما، وهو الذي دبر هذا الكون على حسب إرادته^(١).

يقول الإمام ابن عاشور: «والتعريف في الخلق والأمر تعريف الجنس، فتفيد الجملة قصر جنس الخلق وجنس الأمر على الكون في ملك الله تعالى، فليس لغيره شيء من هذا الجنس، وهو قصر إضافي معناه: ليس لألتهم شيء من الخلق ولا من الأمر، وأما قصر الجنس في الواقع على الكون في ملك الله تعالى فذلك يرجع فيه إلى القرائن، فالخلق مقصور حقيقة على الكون في ملكه تعالى، وأما الأمر فهو مقصور على الكون في ملك الله تعالى قصرًا ادعائيًا؛ لأن لكثير من الموجودات تدبير أمور كثيرة، ولكن لما كان المدبر مخلوقًا لله تعالى كان تدبيره راجعًا إلى تدبير الله»^(٢).

ففي الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله عز وجل، ففيه رد على من يقول: إن للشمس والقمر والكواكب تأثيرات في هذا العالم، فأخبر الله أنه هو الخالق المدبر لهذا العالم لا الشمس والقمر والكواكب، وله الأمر المطلق، وليس لأحد أمر غيره، فهو الأمر

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ١٦٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٦٩.

كمالهم من عبادته وشكره؛ وبذلك تصلح أنفسهم، وتطهر قلوبهم، وتستتير أفئدتهم؛ لتتم لهم بذلك الحياة السعيدة في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة، كما لا يستنكر أن هذا الوحي منه عز وجل إذ هو من كمال تقديره وتدبيره، ولا يقدر عليه سواه^(٣).

فالخالق المدبر له ﴿الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَيَنْ

بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

يقضي في خلقه ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويظهر من شاء منهم على من أحب إظهاره عليه، فله الأمر من قبل ومن بعد، فإياك أن تظن أن انتصار الباطل جاء غصباً عن إرادة الله، أو خارجاً عن مراده، إنما أَرَادَهُ اللهُ وقصده لحكمة، يعني: إياكم أن تفهموا أن انتصار الفرس على الروم، أو انتصار الروم على الفرس خارج عن مرادات الله، فله الأمر من قبل الغلب، ولله الأمر من بعد الغلب، فحين غلبت الروم لله الأمر، وحين انتصرت الفرس لله الأمر؛ لأن الحق سبحانه يهيج أصحاب الخير بأن يغلب أصحاب الشر، ويحرك حميتهم، ويوقظ بأعدائهم مشاعرهم، وينبهمهم إلى أن الأعداء لا ينبغي أن يكونوا أحسن منهم^(٤).

فقوله سبحانه: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَيَنْ

بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

والناهي الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد من خلقه عليه، ويدخل في ذلك السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار دخولاً أولياً، فهو الذي دبرها وصرفها على حسب إرادته^(١).

فقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف:

٥٤].

فيه ما يسمى (إيجاز قصر) وهو جمع المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، فالآية أرشدت أن الله عز وجل هو المنفرد بقدرة الإيجاد، وخالق السماوات والأرض، فهو الذي يجب أن يعبد؛ ولهذا عندما سئل المشركون عن المدبر والخالق لهذا الكون بما يحويه من سماء وأرض ونجوم وجبال وشجر، فكان الجواب بدون تردد بأنه هو الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٢١]^(٢).

فهو يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام، واقتضته حكمته من الأحكام، ولا يستنكر من رب هذا الخلق المدبر لأمر عباده أن يفيض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه، ما يهديهم به لما فيه

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٢٣٠/٣.

(٢) التسهيل لعلم التنزيل، ابن جزي ٢٠٩/٢.

(٣) تفسير المراغي ٦٣/١١.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٦٦/٢.

المخلوقات العظيمة لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة بعد موتكم؛ لكي يحاسبكم على أعمالكم^(٣).

فالحق يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه، فالله سبحانه وتعالى تصير إليه جميع الأمور ﴿وَلِلَّهِ أَكْمَالُ الْأُمُورِ﴾ [البقرة: ٢١٠].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلِلَّهِ أَكْمَالُ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٠٩].

وهو المجازي على الأعمال بالثواب والعقاب.

ففيه دليل على كمال القدرة والرحمة؛ لأن جميع العالم محتاجون إلى تدبيره ورحمته، داخلون تحت قهره وقضائه وقدرته ﴿يَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ [الرعد: ٢].

يعني: أنه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، ومنها الموجودات المشاهدة، وهي خلق السماوات والأرض وما فيهما من العجائب، وأحوال الشمس والقمر وسائر النجوم والموجودات الحادثة في العالم، وهي الموت بعد الحياة، والفقر بعد الغنى، والضعف بعد القوة، إلى غير ذلك من أحوال هذا العالم، وكل ذلك مما يدل على وجود الصانع، وكمال قدرته^(٤).

جملة معترضة لبيان قدرة الله تعالى التامة النافذة، فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر^(١).

قال ابن كثير: «وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر، في قول طائفة كبيرة من العلماء...، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو عند جمهور المفسرين»^(٢).

فالحق سبحانه ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يَفْصِلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الرعد: ٢].

فالتدبير والتفصيل متجدد متكرر بتجدد تعلق القدرة بالمقدورات، وتدبير الأمر: تصريفه على أحسن الوجوه وأحكمها وأكملها، والآيات: جمع آية، والمراد بها هنا: ما يشمل الآيات القرآنية، والبراهين الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته سبحانه. أي: أنه سبحانه يقضى ويقدر ويتصرف في أمر خلقه على أكمل الوجوه، ومن تدبيره لأمر خلقه، ومن تفصيله للآيات لعلمكم عن طريق التأمل والتفكير فيما خلق توفنون ببقائه، وتعتقدون أن من قدر على إيجاد هذه

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣١٠، ٤٤٠.

(٤) انظر: التسهيل لعلم التنزيل، ابن جزى ٣/ ٤.

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣١٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٣٠٣.

بيد الله، وجميع الأمور لله سبحانه وتعالى،
فالحكم والشأن المتعلق بعموم ما يكون وما
كان كله لله، مستند إليه أولاً، وبالأذات بلا
رؤية الأسباب والوسائل (٢).

وبهذه الآيات وغيرها يثبت أن الخالق
المدير الموجد لجميع العوالم هو الحق
سبحانه وتعالى القادر المقتدر، بيده الخير
كله، وإليه يرجع الأمر، والله وأعلم.

ثانياً: أنواع الأمر الإلهي:

١. الأمر القدري الكوني.

يتمثل في أمر الإنشاء والتكوين والإيجاد.
قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا
فَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

يعني: فإذا قضى وقدر أمراً يريد إنفاذه
وإيجاده وإنشاءه، وإخراج المخلوق من
العدم، فإنما يقول له: كن فيكون، ويوجد
من غير توقف على شيء آخر، ولا معاناة
ولا كلفة، أي: إن كل مخلوق يوجد بإرادة
الله وحده، مما يدل على وجوده سبحانه،
وبهذا يتبين أن إيجاد المخلوق يعتمد على
أمرين: الأمر الإلهي بالإيجاد (أي الأمر
القدري الكوني) وتلبس القدرة الإلهية
بإيجاده وإظهاره، لا قبل ذلك، ففي حال
العدم لا يظهر الشيء؛ إذ لا يوجد الأمر، ولا
شيء بعد الإيجاد؛ لأن ما هو كائن لا يقال

فله تعالى القدرة المطلقة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا
سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ
الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

أي: لو ثبت أن قرآنًا يقرأ ويتلى سيرت
به الجبال، فانتقلت من أماكنها، وانفسحت
عن شعابها لتتسع رقعة للزرع والغراس، أو
قطعت الأرض فتشقت، لا تكون منها بحار
تجري فيها المياه، أو يكلم به الموتى بمعنى
أنه يحييها، ثم يكلمها، ولكن الكلام لا يسير
الجبال، ومع ذلك فهو أقوى تأثيراً، وكان
يمكن أن يؤثر في قلوب المشركين بأشد من
ذلك، لولا أن عنادهم حجر قلوبهم، وكما
قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذِهِ الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ
لَّرَأَيْنَاهُ خُشُوعًا مُّتَصِّدَعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾
[الحشر: ٢١] ولكن القلوب التي سكنها الشرك
والكفر، وهي كالحجارة أو أشد قسوة، بل
لله الأمر جميعاً، الإضراب للانتقال بين
هذا إلى بيان أن اختيار المعجزات من أمر
الله، وله وحده كل الأمر، أي: أن الإضراب
متوجه إلى ما يؤدي إليه كون الأمر لله
سبحانه، ويستلزمه من توقف الأمر على ما
تقتضيه حكمته ومشيتته (١).

فمما لا يشك فيه شاك، ولا يرتاب فيه
مرتأب بأن ﴿الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:
١٥٤].

فالقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره

(٢) الفواتح الإلهية، الشيخ علوان ١/ ١٣٠.

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٣٩٥٢.

له: كن^(١).

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٣٦].

فالمراد من الأمر هنا الأمر التكويني.

أي: إنما شأنه تعالى في إيجاد الأشياء أن يقول لما يريد إيجاده: تكون فيتكون، ويحدث فوراً بلا تأخير^(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يقول: يا عبادي، كلّم مذنّب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم. . .، وكلّم فقير إلا من أغنيت، فأسألوني أغنكم. . .، كذلك لا ينقص من ملكي، ذلك بأنّي جواد ماجد صمد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له: كن، فيكون)^(٣).

فالايتان تنبّهان على قدرة الله في الإحياء والإماتة، وعلى سرعة إنجاز الخلق والتكوين بمجرد إرادة الله الفعل.

٢. الأمر الشرعي الديني.

يتمثل الأمر الشرعي الديني في أمر الحق

سبحانه وتعالى، وكذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم للعباد بالإيمان، والتوحيد، وأداء العبادات، والتكاليف الشرعية، والأمر بالتمسك بالأخلاق والقيم، فالأمر الشرعي الديني يشمل الأمر العلمي (الاعتقادي) والعملية (التكليفية) والتهذيبية (الأخلاقية). وبالجملّة يشمل كل ما هو مطلوب من العباد في جميع المجالات، وعلى كل الأصعدة، أي سواء أكانت تلك الأوامر متعلقة بمطلوب يتعلق بعلاقة العبد بربه، أو علاقته بغيره من البشر، أو علاقته بنفسه وذاته التي بين جنبيه، أم غير ذلك، فكل ما هو مطلوب من العبد يدخل تحت الأمر الشرعي^(٤).

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

بيان لما أمر به اليهود والنصارى من التوحيد والإخلاص لله بعد أن ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

وبين الحق ما أمر به النبي من قبل الحق سبحانه وتعالى ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

(٤) ويدخل في هذا النوع كل الأوامر في القرآن والتي يطلب الحق، سبحانه وتعالى، من عباده الإتيان بها سواء أكانت بلفظ الأمر ومشتقاته أو بأي صيغة أخرى تدل على طلب الفعل.

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٢٨٤.

(٢) تفسير المراغي ٣٩/ ٢٢.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٥/ ٢٩٤، رقم ٢١٣٦٧، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرفائق والورع، ٤/ ٢٣٨، رقم ٢٤٩٥، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ٢/ ١٤٢٢، رقم ٤٢٥٧. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ٢/ ٩٣٤، رقم ٦٤٣٧.

آمنوا معه برحمة عظيمة كائنة منا^(٢).

فأمر الله تمثيل في الجزاء الذي لحق بهم، وهو الهلاك والدمار لعدم إيمانهم بالله ورسوله، والأمر الجزائي قد يكون أخروياً كما في المثال الأول، وقد يكون دنيوياً كما في الثاني.

هذا عن مخالفة الأمر الإلهي، أما اتباع الأمر الإلهي فيكون له جزاء (إيجابي) هو الآخر كنتيجة طبيعية لتنفيذه، قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

يعني: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الداعون إلى الخير، الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فمقتضى القيام بحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه يؤدي إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، ففي النص قصر، أي: نفي وإثبات، فهو يثبت الفلاح لهم، وينفي الفلاح عن غيرهم ممن لم يقم بهذا الواجب المقدس^(٣).

ثالثاً: صفات الأمر الإلهي:

من خلال تتبع النصوص التي بينت الأمر الإلهي نجد أنه يتميز بعدة صفات أساسية:

فأمر النبي بعبادة الله، والإخلاص له، وهذا الأمر تدخل فيه الأمة المحمدية أيضاً، فهذا أمر شرعي ديني علمي أو اعتقادي، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

فهنا أمر للنبي بأمر أهله بالصلاة والصبر عليها، والصلاة من التكاليف العملية، فهذا أمر شرعي ديني تكليفي.

٣. الأمر الجزائي.

يتمثل في الجزاء المترتب على اتباع الأمر أو مخالفته، سواء أكان الجزاء دنيوياً أو أخروياً، أي: حاضراً أو مؤجلاً.

ومنه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

أي: إنما أمرهم إلى الله يتولى جزاءهم، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون بالعقاب، إذا وردوا للقيامة^(١).

ومثله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٦٦].

أي: فلما جاء أمرنا بإنزال العذاب بهم في الوقت المحدد نجينا صالحاً والذين

(٢) انظر: الوسيط، طنطاوي ٢٣٦/٧.

(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٣٤٨/٣.

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢١٠/٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ١٩١/٢.

١. القسط.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وهذا بيانٌ للمأمور به، وهو العدل، يقول تعالى ذكره لنبيه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين يزعمون أن الله أمرهم بالفحشاء كذباً على الله: ما أمر ربي بما تقولون، بل ﴿أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ يعني: بالعدل، هو الوسط من كل أمر، المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط^(١) ولهذا ف﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢، الحجرات: ٩، الممتحنة: ٨].

وفيه أن الله سبحانه يأمر بالعدل لا كما زعم المشركون والكفار من أن الله أمرهم بالفحشاء، أي: قل أمر ربي بالقسط فأطيعوه واتبعوه، فالحق سبحانه وتعالى من صفات أمره أنه يأمر عباده في هذا القرآن بالعدل والإنصاف، فيجب أن نكون نحن - من جانبنا - من العادلين في حقه بتوحيده، وعدم الإشراك به، قال أبو سليمان: العدل في كلام العرب: الإنصاف، وأعظم الإنصاف: الاعتراف للمنعِم بنعمته، وفي حق عباده بإعطاء كل ذي حق حقه^(٢).

فالله أمر بالفضائل، وبما تشهد العقول

السليمة أنه صلاح محض، وأنه حسن مستقيم، فالقصاص من القاتل عدل بين إحلال الدماء وبين قتل الجماعة من قبيلة القاتل لأجل جناية واحد من القبيلة لم يقدر عليه، وأمر الله بالإحسان وهو عدل بين الشح والإسراف، فالقسط صفة للفعل في ذاته بأن يكون ملائماً للصلاح عاجلاً وآجلاً، أي: سالماً من عواقب الفساد^(٣).

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

وإيثار صيغة المضارع في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار، ولم يذكر سبحانه متعلقات العدل والإحسان؛ ليعم الأمر جميع ما يعدل فيه، وجميع ما يجب إحسانه وإتقانه من أقوال وأعمال، وجميع ما ينبغي أن تحسن إليه من إنسان أو حيوان أو غيرهما^(٤).

٢. الظهور.

ويوضحه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَكَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٨].

قال ابن كثير: «لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة رمته العرب عن قوس

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣٧٩/١٢، أنوار

التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٠.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٧٩.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨٦/٨.

(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٢٢٠.

[النساء: ٤٧]

فهناك وعيد لليهود، ونذير راصد لهم باللعنة من عند الله، إن لم يؤمنوا بمحمد، وبما أنزل الله عليه، وقد وصفهم القرآن بأنهم أوتوا الكتاب مع أنهم ضيعوا جزءاً منه، وحرفوا جزءاً آخر تسجيلًا عليهم بالتقصير، واستحقاق العقاب، فهم يظنون أن الله مخلف وعيده لهم؛ لأنهم - كما زعموا - أبناء الله وأحباؤه، وكيف وقد وقع هذا العقاب بأبائهم وأخذهم الله به؟ أم يظنون أن الله إذا أراد أمراً بهم، وساق شراً إليهم أهلك من يدفع ما أراده الله بهم؟ فليتظنوا، وسوف يرون ما الله فاعل بهم^(٣).

وكان أمر الله بإيقاع شيء أو وعيده، أو ما حكم به وقضاه مفعولاً نافذاً وكائنًا، فيقع لا محالة ما أوعده وقضى به، فقلوه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ معناه: أنه كان وما زال جميع ما أمر الله به وقضاه نافذاً لا محالة؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

فالجملية الكريمة تذييل قصد به تهديد هؤلاء الضالين المعاندين حتى يثوبوا إلى رشدهم، ويدخلوا في صفوف المؤمنين^(٤). فالمراد من الأمر: الأمر التكويني المعبر عنه بقوله عز من قائل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ

واحدة، وحاربه يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر، وأعلى كلمته، قال ابن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه - أي أقبل - فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله أغاظهم ذلك وساءهم^(١).

فالمنافقون والمشركون يكيدون المكائد، ويدبرون المؤامرات ويحيكونها ضد النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه، إلى غاية هي مجيء الحق، وهو النصر لك والتأييد، وظهر أمر الله بإعزاز دينه، وإعلاء شرعه، وقهر أعدائه، وقيل: الحق القرآن، وهم كارهون، أي: والحال أنهم كارهون لمجيء الحق، وظهور أمر الله، ولكن كان ذلك على رغم منهم، فلن تفلح مكائد البشر من منافقين ويهود ومشركين وغيرهم، ولن تقف أي قوة في الدنيا أمام إرادة الله القاهرة لإعلاء دينه، وغلبة شرعه، ونصرة نبيه صلى الله عليه وسلم^(٢).

٣. النفاذ.

قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ فَرَدَّهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ؕ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ؕ﴾

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٦١.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤١٩، التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ٢٤٠.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٨١١/ ٣.

(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ١٧٧.

سَيِّئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ [يس: ٨٢].

أي: إنما أمره بإيقاع شيء ما^(١) لا بد من وقوعه، أي: ولا بد أن يحدث.

٤. أمر الله له الغلبة.

ويشير إلى ذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١].

قيل: الهاء في ﴿أمره﴾ كناية عن الله تعالى، يقول: إن الله غالب على أمره يفعل ما يشاء، لا يغلبه شيء ولا يرد حكمه راد، يعني: غالبٌ على ما أراد من قضائه، لا يغلب غالبٌ على أمره، ولا يبطل إرادته منازعٌ.

فهو غالب على أمر نفسه فيما يريد ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

أي: إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

أن الأمر كذلك فيما يأتون ويذرون زعمًا منهم أن لهم من الأمر شيئاً، وأنى لهم ذلك؟! وأن الأمر كله لله عز وجل، أو لا يعلمون لطائف صنعه، وخفايا فضله^(٢).

ويقول تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ أَلَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢٤٠/١٠، تفسير المراغي ٦٥/٥.

(٢) انظر: الوجيز، الواحدي ٥٤٢/١، معالم التنزيل، البغوي ٢٢٦/٤.

يبين القرآن الكريم ما يفترى به هؤلاء المشركين على الحق سبحانه وتعالى، ونسبتهم إليه الأحكام والشرائع الباطلة، فيقول: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ قال الطبري: «كانوا يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا فضع المرأة على قبلها النسعة أو الشيء»^(٣).

وقيل: كان قبيلة من العرب من أهل اليمن يطوفون بالبيت عراة، فإذا قيل: لم تفعلون ذلك؟ قالوا: وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها.

فتأويل الكلام إذاً: وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله، الذين جعل الله الشياطين لهم أولياء، قبيحًا من الفعل، وهو الفاحشة^(٤)، وذلك تعريضهم للطواف بالبيت، وتجردهم له، فعذلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم، وعوتبوا عليه، قالوا: «وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم، ونستن بستهم، والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه».

فيقول الله -جل ذكره- لنبية محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿قُلْ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِخُلُقِهِ ﴿بِالْفَحْشَاءِ﴾ بقبائح الأفعال ومساوئها ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أيها الناس

(٣) جامع البيان ٣٧٩/١٨.

(٤) انظر: تفسير الخازن ١٩٢/٢.

أما الحجة الأولى: فما ذكر الله عنها جواباً؛ لأنها إشارة إلى محض التقليد، وقد تقرر في عقل كل أحد أنه طريقة فاسدة؛ لأن التقليد حاصل في الأديان المتناقضة، فلو كان التقليد طريقاً حقاً للزم الحكم بكون كل واحد من المتناقضين حقاً، ومعلوم أنه باطل، ولما كان فساد هذا الطريق ظاهراً جلياً لكل أحد لم يذكر الله تعالى الجواب عنه.

وأما الحجة الثانية: وهي قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

فقد أجاب عنه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ والمعنى: أنه ثبت على لسان الأنبياء والرسل كون هذه الأفعال منكراً قبيحاً، فكيف يمكن القول بأن الله تعالى أمرنا بها؟^(٢)

وبهذا الرد القرآني دحضت أقوالهم، وتبين أن الله تعالى منزه عن الأمر بالفحشاء والمنكر والمعاصي.

﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أتروون على الله أنه أمركم بالتعري والتجرد من الثياب واللباس للطواف، وأنتم لا تعلمون أنه أمركم بذلك؟

فإنكم لم تسمعوا كلام الله تعالى ابتداء من غير واسطة، ولا أخذتموه عن الأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده في تبليغ أوامره ونواهيه وأحكامه؛ لأنكم تنكرون نبوة الأنبياء، فكيف تقولون على الله ما لا تعلمون؟

هذه الأفعال التي كان أهل الجاهلية يفعلونها هي في أنفسها قبيحة منكراً، فكيف يأمر الله تعالى بها، والله لا يأمر بالفحشاء، بل يأمر بما فيه مصالح العباد؛ لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال، والحث على مكارم الخصال^(١).

يقول الإمام الرازي: «اعلم أنه ليس المراد منه أن القوم كانوا يسلمون كون تلك الأفعال فواحش، ثم كانوا يزعمون أن الله أمرهم بها، فإن ذلك لا يقوله عاقل، بل المراد أن تلك الأشياء كانت في أنفسها فواحش، والقوم كانوا يعتقدون أنها طاعات، وأن الله أمرهم بها، ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم كانوا يحتجون على إقدامهم على تلك الفواحش بأمرين، أحدهما: إنا وجدنا عليها آباءنا، والثاني: إن الله أمرنا بها.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٥.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٨٥.

التعامل مع الأمر الإلهي وجزاؤه

بين القرآن أصناف الخلق في التعامل مع الأمر الإلهي، سواء كانوا ملائكة، أو رسلاً، أو مؤمنين، أو كافرين، أو منافقين، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولاً: تعامل الملائكة مع الأمر الإلهي:

تعامل الملائكة مع الأمر الإلهي يتضح فيما يلي:

١. الطاعة والامتثال.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَوْا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]

يقول الإمام الطبري: «يعني: على هذه النار ملائكة من ملائكة الله، غلاظ على أهل النار، شداد عليهم، لا يخالفون الله في أمره الذي يأمرهم به، ويتنهون إلى ما يأمرهم به ربهم، فليست الجملتان في معنى واحد؛ إذ معنى الأولى: أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمون بها، ومعنى الثانية: أنهم يؤدون ما يؤمرون به، ولا يتشاقلون عليه، ولا يتوانون فيه»^(١).

وقال الألوسي: «فإن الأولى لبيان القبول باطناً؛ فإن العصيان أصله المنع والإباء،

وعصيان الأمر صفة الباطن بالحقيقة؛ لأن الإتيان بالمأمور إنما يعد طاعة إذا كان بقصد الامتثال، فإذا نفى العصيان عنهم دل على قبولهم، وعدم إبائهم باطناً، والثانية لأداء المأمور به من غير ثقاقل وتوانٍ على ما يشعر به الاستمرار المستفاد من ﴿وَيَفْعَلُونَ﴾ فلا تكرار، وفي الحصول لا يعصون فيما مضى، على أن المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ في الآتي، وجوز أن يكون ذلك من باب الطرد والعكس، وهو كل كلامين يقرر الأول بمنطوقه مفهوم الثاني وبالعكس، مبالغة في أنهم لا تأخذهم رافة في تنفيذ أوامر الله عز وجل والغضب له سبحانه»^(٢).

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْخَرُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧].

فالله تعالى يشني على ملائكته الذين زعم فريق من المشركين أنهم بنات الله، فيقول: إنهم عباد أكرمهم الله واصطفاهم، يتبعون قوله، فلا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى، أو يأمرهم به كما هو شأن العبيد المؤدبين ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ فلا يعصونه في أمر، إشارة إلى مراعاتهم في أدب العبودية

(٢) روح المعاني، الألوسي ١٤/٣٥٢.

(١) جامع البيان، ٢٣/٤٩٢.

وهناك فريق من العلماء من يرى أن هذا اللفظ راجع للرياح، ومن هؤلاء الإمام الرازي، حيث قال: «هذه صفات أربع للرياح، فالذاريات: هي الرياح التي تنشئ السحاب أولاً، والحاملات: هي الرياح التي تحمل السحب التي هي بخار الماء. . .، والجاريات: هي الرياح التي تجرى بالسحب بعد حملها، والمقسمات: هي الرياح التي تفرق الأمطار على الأقطار»^(٤). قال الألوسي محاولاً الجمع بين الرأيين: «ثم إذا حملت هذه الصفات على أمور مختلفة متغايرة بالذات - كما هو الرأي المعول عليه - فالفاء للترتيب في الأقسام ذكراً ورتبة، باعتبار تفاوت مراتبها في الدلالة على كمال قدرته عز وجل، وهذا التفاوت إما على الترقى أو التنازل؛ لما في كل منها من الصفات التي تجعلها أعلى من وجه، وأدنى من آخر، وإن حملت على واحد وهو الرياح، فهي لترتيب الأفعال والصفات؛ إذ الريح تذرو الأبخرة إلى الجو أولاً، حتى تنعقد سحباً، فتحمله ثانياً، وتجري به ثالثاً ناشرة وساققة له إلى حيث أمرها الله تعالى، ثم تقسم أمطاره»^(٥). يقول صاحب تفسير الوسيط: «ومع وجهة رأى الإمام الرازي في هذه المسألة

في الأفعال أيضاً كالأقوال^(١). ويؤكد قوله: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

٢. تقسيم أمره بين الخلائق. قال تعالى: ﴿فَالْمَقْسِمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤].

والمراد بالمقسمات: الملائكة، فإنهم يقسمون أرزاق العباد وأمورهم وشؤونهم على حسب ما يكلفهم الله تعالى به من شؤون مختلفة، و﴿أَمْرًا﴾ مفعول به للوصف الذي هو المقسمات، وهو مفرد أريد به الجمع، أي: المقسمات لأموال العباد بأمر الله تعالى وإرادته^(٢).

فعن أبي الطفيل أنه سمع علياً رضي الله عنه يقول وهو على منبر الكوفة: لا تسألوني عن آية في كتاب الله، ولا عن سنة رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك، فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ [الذاريات: ١]؟ قال: الريح. ﴿فَالْحَمِيلَاتِ وَقَرًا﴾ [الذاريات: ٢]. قال: السحاب. ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ [الذاريات: ٣]؟ قال: السفن. ﴿فَالْمَقْسِمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]؟ قال: الملائكة^(٣).

(١) محاسن التأويل، القاسمي ١٨٩/٧.

(٢) الوسيط، طنطاوي ١٠/١٤.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٣٩٢/٢٢.

(٤) مفاتيح الغيب ٦٢٨/٧.

(٥) روح المعاني ٣٩١/٧.

إلا أننا نؤثر عليه الرأي السابق؛ لأنه ثابت عن بعض الصحابة؛ ولأن كون هذه الألفاظ الأربعة لها معانٍ مختلفة أدل على قدرة الله تعالى وعلى فضله على عباده^(١).

وإنما ذكرهم بالمقسمات لأن الإنسان في الأجزاء الجسمية غير مخالف متخالفًا بينًا، فإن لكل أحد رأسًا ورجلاً، والناس متقاربة في الأعداد والأقدار، لكن التفاوت الكثير في النفوس، فإن الشريفة والخسيسة بينهما غاية الخلاف، وتلك القسمة متفاوتة تنقسم بمقسم مختار ومأمور مختار، فقال: ﴿فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]^(٢).

قال ابن السائب: والمقسمات أربعة: جبريل، وهو صاحب الوحي والغلظة، وميكائيل، وهو صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل وهو صاحب الصور واللوح، وعزرائيل وهو قابض الأرواح، وإنما أقسم بهذه الأشياء لما فيها من الدلالة على صنعه وقدرته^(٣).

٣. تدبير الأمر بين الخلائق.

قال تعالى: ﴿فَالْمَدِيرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

يقول الإمام الطبري: يعني: فالملائكة المدبرة ما أمرت به من أمر الله، قال

القشيري: أجمعوا على أن المراد: الملائكة، قال الجمل: اختلفت عبارات المفسرين في هذه الكلمات، هل هي صفات لشيء واحد أو لأشياء مختلفة؟ على أوجه:

واتفقوا على أن المراد بقوله: ﴿فَالْمَدِيرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وصف لشيء واحد، وهم الملائكة^(٤).

فقوله: ﴿فَالْمَدِيرَاتِ أَمْرًا﴾ المقصود به طائفة من الملائكة، من وظائفهم تدبير شأن الخلائق، وتنظيم أحوالهم بالطريقة التي يأمرهم سبحانه بها، فنسبة التدبير إليهم إنما هي على سبيل المجاز؛ لأن كل شيء في هذا الكون إنما هو بقضاء الله وتقديره وتدييره^(٥).

قال ابن عباس رضي الله عنه: هم الملائكة، وكلوا بأمور عرفهم الله عز وجل العمل بها، وقال عبد الرحمن بن سابط: يدبر الأمر في الدنيا أربعة أملاك: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، واسمه عزرائيل، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس، وأما إسرافيل فهو ينزل عليهم بالأمر من الله تعالى، وأقسم الله تعالى بهذه الأشياء لشرفها...

(١) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٤/ ١١.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٦١.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٦٧.

(٤) حاشية الجمل ٤/ ٤٧٧.

(٥) الوسيط، طنطاوي ٢٠/ ١٢٦.

في شفقتك، وحسن نظرك، ولا أتهم الله في قضائه، ثم قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ فأخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى؛ لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى، وإنما علق المشيئة لله تعالى على سبيل التبرك والتمين، فإنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله (٢).

٢. الاتباع.

قال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

قال الإمام الرازي: قال تعالى حكاية عن عيسى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أن مفسرة، والمفسر هو الهاء في به الراجع إلى القول المأمور به، والمعنى: ما قلت لهم إلا قولاً أمرتني به؛ وذلك القول هو أن أقول لهم: اعبدوا الله ربي وربكم، واعلم أنه كان الأصل أن يقال: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به، إلا أنه وضع القول موضع الأمر، نزولاً على موجب الأدب الحسن؛ لئلا يجعل نفسه وربه أمرين

وقال الإمام الرازي: «لم قال: ﴿قَالَمَذَرَتِ أَمْرًا﴾ ولم يقل: أمورا، فإنهم يدبرون أمورا كثيرة لا أمرا واحدا؟ والجواب: أن المراد به الجنس، وإذا كان كذلك قام مقام الجمع» (١).

ثانياً: تعامل الرسل مع الأمر الإلهي:

يتمثل تعامل الرسل مع أمر الحق سبحانه وتعالى كما يلي:

١. الطاعة والامتثال.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَازِلِ آيَاتٍ أَذْهَبَكُمْ فَأَنْظِرْ مَاذَا فَعَلْتُ قَالَ يَنْتَابِتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

قال مجاهد عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: لما شب حتى بلغ سعيه سعي إبراهيم، والمعنى أن ينصرف معه ويعينه في علمه، اختبر إبراهيم فيه برؤية رآها، قال إبراهيم: يا بني إني أرى في المنام وحياً من الله يطلب مني ذبحك، فانظر ماذا ترى؟ فقد امتثل لأمر الله سبحانه وتعالى وقال إسماعيل صابراً محتسباً، مرضياً لربه، وباراً بوالده: ﴿يَنْتَابِتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمُرُ﴾ [الصافات: ١٠٢].

أي: امض لما أمرك الله؛ لأنني لا أتهمك

(٢) انظر: الباب في بيان الكتاب، ابن عادل ١٦/٣٣٠، نظم الدرر، البقاعي ١٦/٢٦٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٠٥.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/٢٩، مدارك التنزيل، النسفي ٤/٣٩١.

معاً، ودل على الأصل بذكر أن المفسرة، ثم قال تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي: كنت أشهد على ما يفعلون ما دمت مقيماً فيهم، فلما توفيتي والمراد منه: وفاة الرفع إلى السماء، من قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].
﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ﴾ قال الزجاج: الحافظ عليهم المراقب لأحوالهم ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ من قولي وفعلي، وقولهم وفعلهم^(١).

وفي ذلك دليل واضح على شدة الاتباع لأمر الحق من قبل سيدنا عيسى عليه السلام فيما أمره الله به من عباده من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته.

٣. التبليغ.

قال تعالى: ﴿وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

قال الضحاك: وفي قوله: ﴿وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ وجهان: أحدهما في الأحكام، الثاني في التبليغ.

وقال الإمام أبو الفرج: في ما أمر أن يعدل فيه قولان: أحدهما - في الأحكام

إذا ترافعوا إليه، والثاني - في تبليغ الرسالة، وقال البيضاوي: ﴿وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: في تبليغ الشرائع والحكومات^(٢).

والمعنى: أمرني ربي أن أعدل بينكم؛ وذلك بتبليغ الشرائع والأحكام، وفصل القضايا عند المحاكمة والخصام، وقيل: معناه لأسوي بيني وبينكم، ولا آمركم بما لا أعمله، ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، ولا أفرق بين أكابركم وأصاغركم^(٣).

وعلى المعنى الآخر، قال الطبري: أي: قل لهم يا محمد: وأمرني ربي أن أعدل بينكم معشر الأحزاب، فأسير فيكم جميعاً بالحق الذي أمرني به، وبعثني بالدعاء إليه^(٤).

٤. طلب التيسير.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ زَكَاةٍ أَمْرِي﴾ [طه: ٢٦].
قال الطبري: يعني: وسهل علي القيام بما تكلفني من الرسالة، وتحملني من الطاعة، أي: سهل علي ما بعثني له، ففيها طلب الإعانة لتبليغ الرسالة؛ وذلك لأن كل ما يصدر من العبد من الأفعال والأقوال والحركات والسكنات فما لم يصير العبد مريدًا له استحال أن يصير فاعلاً له، فهذه

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١٩٩/٥، زاد المسير، ابن الجوزي ٦٢/٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٧٩/٥.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢٧/٨.

(٤) جامع البيان، الطبري ٥١٦/٢١.

(١) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٢٢٣/٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٤٦٦/١٢، مدارك التنزيل، النسفي ٤٨٧/١.

١. الإيمان بما أمر الله به.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

قال ابن عباس رضي الله عنه وسعيد بن جبير: معنى: ﴿يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾ أي: الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم، قال القرطبي: والظاهر أنها في صلة الأرحام، وهو قول قتادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات^(٣).

وقال صاحب التحرير: «وما أمر الله به أن يوصل عام في جميع الأواصر والعلاقات التي أمر الله بالمودة والإحسان لأصحابها، فمنها آصرة الإيمان، ومنها آصرة القرابة، وهي صلة الرحم، وقد اتفق المفسرون على أنها مراد الله هنا»^(٤).

وقال الإمام النسفي: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من الأرحام والقرابات، ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

بالإحسان إليهم على حسب الطاقة، ونصرتهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم،

الإرادة صفة محدثة، ولا بد لها من فاعل، وفاعلها إن كان هو العبد افتقر في تحصيل تلك الإرادة إلى إرادة أخرى، ولزم التسلسل، بل لا بد من الانتهاء إلى إرادة يخلقها مدبر العالم، ففي الحقيقة هو الميسر للأمور^(١).

قال ابن كثير: هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم، فقد بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم، وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلها غيره.

وفي زيادة كلمة ﴿يُ﴾ مع انتظام الكلام بدونها تأكيد لطلب الشرح والتيسير بإيهاهم الشروح والميسر أولاً وتفسيرهما ثانياً، وفي تقديمها وتكريرها إظهار مزيد اعتناء بشأن كل من المطلوبين، وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما له، واختصاصهما به^(٢).

ثالثاً: تعامل المؤمنين مع الأمر الإلهي:

يتعامل المؤمن مع الأمر الإلهي، وفق النقاط الآتية:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٩٩/١٨، زاد المسير، ابن الجوزي ١٥٧/٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٨٢/٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١٢/٦.

(٣) انظر: الوجيز، الواحدي ص ٥٧٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/٣١٠.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢٧/١٣.

ولإفشاء السلام عليهم، وعيادة مرضاهم، ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر ﴿وَيَحْشُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: وعيده كله ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ خصوصاً فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا^(١).

وهكذا يتبين لنا أن المؤمن الحقيقي يؤمن بكل ما يأمر الله تعالى به ويخشاه ويخافه.

٢. طلب التيسير.

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

قال الطبري: حين أوى الفتية أصحاب الكهف إلى كهف الجبل، هرباً بدينهم إلى الله، فقالوا إذ أوهه: ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ رغبة منهم إلى ربهم في أن يرزقهم من عنده رحمة، ويسر لنا بما نبتغي وما نلتمس من رضاك والهرب من الكفر بك، ومن عبادة الأوثان التي يدعوننا إليها قومنا ﴿رَشَدًا﴾ يقول: سداً إلى العمل بالذي تحب، أي: أرشدنا إلى ما يقرب منك، والمعنى: هيئ لنا من أمرنا ما نصيب به الرشد^(٢).

فقد سألوا الله أن يقدر لهم أحوالاً تكون عاقبتها حصول ما خولهم من الثبات على

الدين الحق، والنجاة من مناوئة المشركين؛ وذلك طلب لتيسير أمورهم وأحوالهم، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله لتيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق؛ فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقبض لهم ما لم يكن في حسابهم^(٣). فالؤمن الحقيقي يلجأ إلى الله؛ لأن هو من بيده التيسير فهو القادر المقتدر.

٣. الهداية به.

قال تعالى: ﴿وَكَاذِبِينَ مِّنْ نَّبِيِّ قَتَلْتَلَا مَعَهُ رَيْثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [١٦] وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٧].

قال ابن القيم: «لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصير في حق، أو تجاوز لحد، وأن النصر منوط بالطاعة، قالوا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ قال القاضي: وهذا تأديب من الله تعالى في كيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن، سواء كان في الجهاد أو غيره^(٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٧١.

(٤) زاد المعاد ٣/ ٢٠٢.

(١) مدار التنزيل، النسفي ١/ ٤١٦.

(٢) جامع البيان، ١٧/ ٦٠٥.

إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿[الأحزاب: ٣٦].

قال الشوكاني: «أي: ما صح ولا استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين، ولفظ ما كان وما ينبغي ونحوهما معناهما المنع والحظر من الشيء، والإخبار بأنه لا يحل أن يكون شرعاً، وقد يكون لما يمتنع عقلاً، كقوله: ﴿مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُبَيِّنُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠].

ومعنى الآية: أنه لا يحل لمن يؤمن بالله إذا قضى الله أمراً أن يختار من أمر نفسه ما شاء، بل يجب عليه أن يذعن للقضاء، ويوقف نفسه على ما قضاه الله عليه، واختاره له»^(٢).

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: لم يكن لمؤمن بالله ورسوله، ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله في أنفسهم قضاء أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم، ويخالفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما فيعضوهما، ومن يعص الله ورسوله فيما أمراً أو نهياً ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ يقول: فقد جار عن قصد السبيل، وسلك غير سبيل الهدى والرشاد»^(٣).

وروي في سبب نزول الآية: أنها نزلت في

وهذا ما وصف به المتقين من قوله: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكِّرُوا اللَّهَ فَأَسْتَغْفِرُوا﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقال الإمام الشوكاني: «قوله: ﴿لَا أَنْ قَالُوا﴾ استثناء مفرغ، أي: ما كان قولهم عند أن قتل منهم ربانيون، أو قتل نبيهم إلا أن قالوا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ قيل: هي الصغائر، وقوله: ﴿وَأَسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ قيل: هي الكبائر، والظاهر: أن الذنوب تعم كل ما يسمى ذنباً من صغيرة أو كبيرة، والإسراف: ما فيه مجاوزة للحد، فهو من عطف الخاص على العام، قالوا ذلك مع كونهم ربانيين: هضمًا لأنفسهم، ﴿وَكَيْتَ أَقْدَامَنَا﴾ في مواطن القتال، ﴿فَقَاتِلْهُمْ اللَّهُ﴾ تعالى بسبب ذلك ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ من النصر والغنيمة والعزة ونحوها، ﴿وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ثواب الآخرة الحسن، وهو نعيم الجنة، جعلنا الله من أهلها، فهم قد ابتهلوا إليه عند نزول المصيبة بقولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَأَسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ خشية أن يكون ما أصابهم جزاء على ما فرط منهم، وهكذا استعملوا الأمر في طلب الهداية، والعون من الله»^(١).

٤. الطاعة والامتثال.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ

(٢) المصدر السابق ٤/ ٣٢٦.

(٣) جامع البيان ٢٠/ ٢٧١.

(١) فتح القدير ١/ ٣٨٧.

واختياري، ومن تلقاء نفسي، وإنما فعلته عن أمر الله إياي به، فهو كان عبداً مأموراً، فمضى لأمر الله وأتبعه»^(٣).

قال الرازي: «يعني ما فعلت ما رأيت من هذه الأحوال عن أمري واجتهادي ورأيي، وإنما فعلته بأمر الله ووحيه؛ لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم لا يجوز إلا بالوحي والنص القاطع»^(٤).

فكل ما فعله الخضر فإنما عن أمر من له الأمر، وهو الله، وهكذا كل مؤمن لا يسير خطوة، ولا ينفذ أمراً إلا متبعاً لأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

٦. الصبر والتقوى.

قال تعالى: ﴿تَتَّبِعُوا فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَلَنْ نَصْرِيَهُمْ وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين أنهم سيبتلون في أموالهم وفي أنفسهم، وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك عدة فوائد، منها: أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه إذا وقع؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه، فيهون عليهم حمله، وتخف عليهم مؤنته، ويلجئون إلى

زينب بنت جحش، وكانت بنت عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضيت ورأت أنه يخطبها على نفسه، فلما علمت أنه يخطبها على زيد بن حارثة أبت وأنكرت، فأنزل الله الآية، قال: فتابعته بعد ذلك ورضيت، وهكذا هو المؤمن الحقيقي يتعامل مع أمر الحق سبحانه وتعالى بالطاعة والامتثال^(١).

قال ابن كثير: «هذه الآية عامة في جميع الأمور؛ وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ها هنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥]»^(٢).

٥. الاتباع.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ ثَابِئِلٌ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

قال الطبري: «يعني: وما فعلت يا موسى جميع الذي رأيته فعلته عن رأيي

(٣) جامع البيان ١٨/٩١.

(٤) مفاتيح الغيب ٢١/٤٩٢.

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير القرآن الكريم، ٦/٤٢٣.

الأذى، والصفح عنه ومغفرته، ومقابلته بالإحسان أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه^(٤).

قال صاحب التحرير: «وهذا ترغيب في العفو والصبر على الأذى؛ وذلك بين الأمة الإسلامية ظاهر، وأما مع الكافرين فتعثره أحوال تختلف بها أحكام الغفران، وملاكها أن تترجح المصلحة في العفو أو في المؤاخظة»^(٥).

رابعاً: تعامل الكافرين والمنافقين مع الأمر الإلهي:

يتعامل الكافرون والمنافقون مع الأمر الإلهي بالرفض والامتناع، ويتضح ذلك كما يلي:

١. العتو.

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

قال البيضاوي: «فهذه الآية صفة للفاستقين للذم وتقرير الفسق، ثم قال مبيناً

الصبر والتقوى^(١).

قال أبو السعود: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا﴾ أي: تتخلقوا بالصبر على تلك الشدائد والبلوى عند ورودها وتقابلوها بحسن التجمل ﴿وَتَتَّقُوا﴾ أي: تتبتلوا إلى الله تعالى بالكلية، معرضين عما سواه بالمرة، بحيث يتساوى عندكم وصول المحبوب ولقاء المكروه ﴿فَإِنْ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الصبر والتقوى، وما فيه من معنى البعد؛ للإيذان بعلو درجتهم، وبعد منزلتهما ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: الأشياء التي هي أهل لأن يعزم على فعلها، ولا يتردد فيه، ولا يعوق عنه عائق^(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ لِذَنْبِهِ﴾ [الشورى: ٤٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ على إساءة إليه، ﴿وَغَفَرَ﴾ للمسيء إليه جرمة إليه، فلم يتصر منه، وهو على الانتصار منه قادر، ابتغاء وجه الله، وجزيل ثوابه ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ يقول: إن صبره ذلك وغفرانه ذنب المسيء إليه لمن عزم الأمور التي ندب إليه عباده، وعزم عليهم العمل به»^(٣).

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل من أشق شيء عليها، والصبر على

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦٠.

(٢) إرشاد العقل السليم، ١٢٤/٢.

(٣) جامع البيان ٥٥١/٢١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٠.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢٣/٢٥.

وعدم وصل الأقوال الطيبة بالأعمال الصالحة، وسائر ما فيه رفض خير، أو تعاطي شر^(٣). وجعل الآية عامة في كل قطعة لا يرضاها الله هو الأولى والراجح في نظري؛ فالعبرة بعموم اللفظ كما على ذلك جمهور المفسرين.

ونظير تلك الآية قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

٢. التكذيب.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَاتَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

قال الإمام الطبري: «كان قبيلة من العرب من أهل اليمن يطوفون بالبيت عراة، فإذا قيل: لم تفعلون ذلك؟ قالوا: وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها، فتأويل الكلام إذا: وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله الذين جعل الله الشياطين لهم أولياء قبيحًا من الفعل، وهو الفاحشة، وذلك تعريضهم للطواف بالبيت وتجردهم له، فعذلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم، وعوتبوا عليه، قالوا: وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون، ونفتدي بهديهم، ونستن بستمهم،

(٣) الوسيط، طنطاوي ٨٧/١.

تعامل هؤلاء مع ما أمر الله به بعد أن بين نقضهم للعهود والمواثيق فقال: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ﴾ يحتمل كل قطعة لا يرضاها الله تعالى، كقطع الرحم، والإعراض عن موالاة المؤمنين، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام، والكتب في التصديق، وترك الجماعات المفروضة، وسائر ما فيه رفض خير، أو تعاطي شر، فإنه يقطع الوصلة بين الله وبين العبد المقصودة بالذات من كل وصل وفصل ﴿وَيَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمنع عن الإيمان، والاستهزاء بالحق، وقطع الوصل التي بها نظام العالم وصلاحه^(١).

فقوله عز وجل: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: قال الماوردي: أحدها: أن الذي أمر الله تعالى به أن يوصل هو رسوله، فقطعوه بالتكذيب والعصيان، وهو قول الحسن البصري، والثاني: أنه الرحم والقرابة، وهو قول قتادة، والثالث: أنه على العموم في كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل^(٢).

فقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ﴾ عام في كل قطعة لا يرضاها الله، كقطع الرحم، والإعراض عن موالاة المؤمنين، وترك الجماعات المفروضة،

(١) أنوار التنزيل ٦٥/١.

(٢) النكت والعيون، ٨٩/١.

٣. النفور.

﴿وَلِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

يقول تعالى منكراً على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: اسجدوا واخضعوا وتذلّلوا للرحمن، فالسجود الذي أمروا به سجود الاعتراف له بالوحدانية، وهو شعار الإسلام، ولم يكن السجود من عبادة مشركي قريش، وإنما كانوا يطوفون بالأصنام، ومقصدهم من ذلك إباء السجود لله؛ لأن السجود الذي أمروا به سجود لله بنية انفراد الله به دون غيره، وهم لا يجيبون إلى ذلك، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ فالنفور من السجود سابق قبل سماع اسم الرحمن، وزادهم ذكر الرحمن نفوراً أي: تباعداً من الإيمان^(٤).

أما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويفردونه بالإلهية، ويسجدون له، وكان سفيان الثوري يقول في هذه الآية: إلهي زادني لك خضوعاً ما زاد عداك نفوراً، وكأنهم يقولون: تأمرنا بألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، وتريد أن تأمرنا أيضاً بأن نسجد لهذا الرحمن.

قال الطبري: يعني وزاد هؤلاء المشركين

(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٢٦.

والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه^(١).

فقليل لهم: يعني أنكم سمعتم كلام الله تعالى ابتداءً من غير واسطة، ولا أخذتموه عن الأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده في تبليغ أوامره ونواهيه وأحكامه؛ لأنكم تنكرون نبوة الأنبياء؛ فكيف تقولون على الله ما لا تعلمون؟^(٢).

فليس المراد أن القوم كانوا يسلمون كون تلك الأفعال فواحش، ثم كانوا يزعمون أن الله أمرهم بها، فإن ذلك لا يقوله عاقل، بل المراد أن تلك الأشياء كانت في أنفسهم فواحش، والقوم كانوا يعتقدون أنها طاعات، وأن الله أمرهم بها، ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم كانوا يحتجون على إقدامهم على تلك الفواحش بأمرين:

أحدهما: إنا وجدنا عليها آباءنا.

والثاني: إن الله أمرنا بها...

وأما الحجة الثانية: وهي قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فقد أجاب عنه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ والمعنى: أنه ثبت على لسان الأنبياء والرسول كون هذه الأفعال منكراً قبيحة فكيف يمكن القول بأن الله تعالى أمرنا بها؟^(٣).

(١) جامع البيان ١٢/ ٣٧٩.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٩٢.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٥.

قول القائل لهم: اسجدوا للرحمن من إخلاص السجود لله، وإفراد الله بالعبادة بعداً مما دعوا إليه من ذلك فرازا^(١).

خامساً: تعامل إبليس وذريته مع الأمر الإلهي:

تعامل إبليس مع الأمر الإلهي يتمثل فيما يلي:

١. الكبر والغرور.

قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ آلَاَسَجِدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِنِي مِّنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

قال العلماء: الذي أحوجه إلى ترك السجود هو الكبر والحسد، وكان أضمر ذلك في نفسه إذا أمر بذلك، وقال الإمام النسفي: «والسؤال عن المانع من السجود مع علمه به للتوبيخ ولإظهار معاندته وكفره وكبره»^(٢).

فقد كان أمره من قبل خلق آدم، يقول الله تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ (٣) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿ [ص: ٧٢-٧١].

فكانه دخله أمر عظيم من قوله: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فإن في الوقوع توضيح الواقع وتشريفاً لمن وقع له، فأضمر في نفسه ألا

يسجد إذا أمره في ذلك الوقت، فلما نفخ فيه الروح وقعت الملائكة سجداً، وبقي هو قائماً بين أظهرهم، فأظهر بقيامه وترك السجود ما في ضميره... قلت: يعني من الكبر والاستكبار لأمر الله.

ثم قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي: منعني من السجود فضلي عليه، فهذا من إبليس جواب على المعنى، فليس هذا عين الجواب، بل هو كلام يرجع إلى معنى الجواب ﴿خَلَقْنِي مِّنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فرأى أن النار أشرف من الطين؛ لعلوها وصعودها وخفتها؛ ولأنها جوهر مضيء.

قال ابن عباس رضي الله عنه والحسن وابن سيرين: أول من قاس إبليس، فأخطأ القياس، فمن قاس الدين برأيه قرنه مع إبليس، قال ابن سيرين: وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس، وقالت الحكماء: أخطأ عدو الله من حيث فضل النار على الطين، وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق^(٣).

فهو مما لاشك فيه أول من أسس بنيان التكبر والمعاندة والعصيان للأوامر الإلهية؛ ولأن الباعث على قوله هذا التكبر، وليس الدليل؛ لذلك قال الله تعالى له: ﴿قَالَ فَأَهِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ

(١) الطبري ٢٨٨/١٩ وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦٤/١٣ وتفسير أبي زهرة ٥٣٠٧/١٠. (٢) مدارك التنزيل، النسفي ٥٥٧/١. (٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧١/٧.

مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿[الأعراف ١٣].

رَبِّهِ ﴿[الكهف: ٥٠].

٢. الرفض والخروج على أوامر الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ لَكُمْ عُدُوٌّ يُنَاسِلُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

فقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ يعني: فخرج عن أمر ربه، وعدل عنه ومال، وعن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ قال: في السجود لآدم، فالمعنى: أنه: عتا وعصى، وأصل الفسق: الخروج، أي: خرج عن أمر ربه، وكذلك قال القتيبي: ففسق، أي: خرج عن طاعته، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها، يعني: أنه خرج عن أمر ربه إلى معصيته في ترك السجود، وذكر هذا الزمن بأحداثه وما قيل فيه استحضار لصورته، وكيف عصى إبليس ربه، وعاند في الخضوع لأمر الله تعالى بالنسبة لآدم^(١).

قال الإمام الشعراوي: «لقد جاء القرآن بالنص الصريح الذي يوضح جنسيته، فليس لأحد أن يقول: إنه من الملائكة، وما دام كان من الجن، وهم جنس مختار في أن يفعل أو لا يفعل، فقد اختار ألا يفعل: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾»

أي: رجع إلى أصله، وخرج عن الأمر، أي: فخرج بذلك عن طاعتنا، واستحق لعنتنا وغضبنا^(٢).

سادساً: جزاء اتباع الأمر الإلهي في الدنيا والآخرة:

١. الفلاح في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].
ففي الآية السابقة حثٌ لاتباع أمة النبي محمد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمراد بالأمة هنا الطائفة من الناس التي تصلح لمباشرة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمعروف ما حسنه الشرع، وتعارف العقلاء على حسنه، والمنكر ضد ذلك، كما أن الآية تومئ إلى الحث على الدعوة إلى ما يصلح من شأن الناس، من خلال أمرهم بالتمسك بالتحاليم وبالأخلاق التي توافق الكتاب والسنة والعقول السليمة، ونهيهم عن المنكر الذي يأباه شرع الله، وتنفرد منه الطباع الحسنة؛ ولقد أعد الله لمن يفعلون ذلك الفلاح في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي:

(٢) تفسير الشعراوي ١٤ / ٨٩٣٥.

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردى ٧ / ١٨٥.

الذين صلحت أحوالهم عند الله، ورضيهم، واستحقوا رضاه وثناؤه»^(٣).

وهذا غاية المدح من وجهين:

الأول: أن الله مدح بهذه الصفة أكابر الأنبياء، فقال بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذو الكفل وغيرهم: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٦].

وقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِيحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤].

الثاني: أن الإصلاح ضد الفساد، فكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد، سواء أكان ذلك في العقائد أم في الأعمال، وإذا كان كذلك كان كل ما ينبغي أن يكون صلاحاً، فكان الإصلاح دالاً على أكمل الدرجات^(٤).

قال القفال: ولا يبعد أن يقال: المراد: كل من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فسماهم الله بأهل الكتاب، كأنه قيل: أولئك الذين سمو أنفسهم بأهل الكتاب حالهم وصفتهم تلك الخصال الذميمة، والمسلمون الذين سماهم الله بأهل الكتاب حالهم وصفتهم هكذا، فكيف يستويان؟ فيكون الغرض - من هذه الآية - تقرير فضيلة أهل الإسلام، تأكيداً لما تقدم من قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل

هؤلاء هم المختصون بالفلاح الكامل، فقد ختم سبحانه الآية الكريمة بتبشير هؤلاء ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفلاح هو الظفر، وإدراك البغية، أي: وأولئك القائمون بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم الكاملون في الفلاح والنجاح، ولا يمكن أن يفلح سواهم ممن لم يقيم بهذا الواجب الذي هو مناط عزة الجماعات والأفراد، وأساس رفعتهم وقوتهم وسعادتهم^(١).

وقد روى الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)^(٢).

٢. الإصلاح.

قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤].

يقول الإمام النسفي: «وأولئك الموصوفون بما وصفوا به من الصالحين، أي: من المسلمين، أو من جملة الصالحين

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ٢٠٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، ١/ ٦٩، رقم ٤٩.

(٣) مدارك التنزيل ١/ ٢٨٤.

(٤) الباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٤٨١.

عمران: ١١٠.]

ونظيره قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨].

منهم: ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٣].

قيل: قائمة في الصلاة، يتلون آيات الله، فعبر بذلك عن تهجدهم^(١).
٣. الفوز.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [٥٢].

يقول الإمام الطبري: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمره ونهاه، ويسلم لحكمهما له وعليه، ويخف عاقبة معصية الله ويحذره، ويتق عذاب الله بطاعته إياه في أمره ونهيه ﴿فَأُولَئِكَ﴾ يقول: فالذين يفعلون ذلك ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ برضا الله عنهم يوم القيامة، وأمنهم من عذابه^(٢).

وذكر أن عمر رضي الله عنه بينما هو قائم في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه، وهو يقول: أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقال له عمر: ما شأنك؟ قال: أسلمت لله، قال: هل لهذا سبب؟ قال: نعم! إني قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء،

فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما في الكتب المتقدمة، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت: قال: ما هذه الآية؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ﴾ في الفرائض ﴿وَرَسُولَهُ﴾ في السنن ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ فيما مضى من عمره ﴿وَيَتَّقْهُ﴾ فيما بقي من عمره ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة، فقال عمر: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أوتيت جوامع الكلم)^(٣).

فهذه الآية جامعة لأسباب الفوز والنجاح والفلاح، فقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يعني: الذين فازوا بكل خير، وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة^(٤).

يقول صاحب الظلال: «وعد الله ولن يخلف الله وعده، وهم للفوز أهل، ولديهم أسبابه من واقع حياتهم، فالطاعة لله ورسوله تقتضي السير على النهج القويم الذي رسمه الله للبشرية عن علم وحكمة، وهو بطبيعته يؤدي إلى الفوز في الدنيا والآخرة، وخشية الله وتقواه هي الحارس الذي يكفل الاستقامة على النهج، وإغفال المغريات التي تهتف بهم على جانبيه، فلا ينحرفون ولا يلتفتون، وأدب الطاعة لله ورسوله، مع خشية الله وتقواه، أدب رفيع، ينبىء عن مدى

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٩٥/١٢.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧٥/٦.

(١) المصدر السابق ٤٨١/٥.

(٢) جامع البيان ٢٠٦/١٩.

وسلم ﴿لِمَا يَحْيِيكُمْ﴾ أي: إلى ما يصلح أحوالكم، ويرفع درجاتكم، من الأقوال النافعة، والأعمال الحسنة، التي بالتمسك بها تحيون حياة طيبة، وتظفرون بالسعادتين الدنيوية والأخروية^(٣).

فأجيبوا دعوته بقوة وعزم، كما قال في آية أخرى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣].

وطاعته صلى الله عليه وسلم واجبة في حياته، وبعد مماته فيما علم أنه دعا إليه دعوة عامة من أمور الدين الذي بعثه الله به، كميانه لصفة الصلاة وعددها قولاً أو فعلاً، فقد صلى بأصحابه وقال: (صلوا كما رأيتموني أصلي)^(٤).

وقال: (خذوا عني مناسككم)^(٥). وبيانه لمقادير الزكاة وغيرها من السنن العملية المتواترة وأقواله كذلك، فكل من ثبت لديه شيء منها يبحث أو بحث العلماء الذين يثق بهم وجب عليه الاهتداء به^(٦).

والضمير في قوله: ﴿دَعَاكُمْ﴾ يعود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه هو المباشر للدعوة إلى الله؛ ولأن في الاستجابة

إشراق القلب بنور الله، واتصاله به، وشعوره بهيئته، كما ينبئ عن عزة القلب المؤمن واستعلائه، فكل طاعة لا ترتكن على طاعة الله ورسوله، ولا تستمد منها، هي ذلة ياباها الكريم، وينفر منها طبع المؤمن، ويستعلي عليها ضميره، فالمؤمن الحق لا يحني رأسه إلا لله الواحد القهار^(١).

٤. طيب الحياة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأفآل: ٢٤].

ففي الآية السابقة حث للمؤمنين على الاستجابة لأمر الرسول إذا دعاهم إلى شيء، فإن في الاستجابة لأمره إحياء للنفوس، واختير في تعريفهم عند النداء وصف الإيمان ليومئ إلى أن الإيمان هو الذي يقتضي أن يثقوا بعناية الله بهم، فيمتثلوا أمره إذا دعاهم، وليس قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يَحْيِيكُمْ﴾ قيداً للأمر باستجابة، ولكنه تنبيه على أن دعاء إياهم لا يكون إلا إلى ما فيه خير لهم، وإحياء لأنفسهم^(٢).

والمعنى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله حق الإيمان ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ عن طوعية واختيار، ونشاط وحسن استعداد ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الرسول صلى الله عليه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٢٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣١١.

(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٧٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ٨/ ٩، ٦٠٠٨.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر، ٩٤٣، رقم ١٢٩٧.

(٦) تفسير المراغي ٩/ ١٨٧.

الأمر الإنساني وجزاء اتباعه

بين القرآن الكريم أوامر الإنسان، سواء كان من الرسل أو المؤمنين أو المنافقين أو الجبابرة والمُسرفين، وبين جزاء اتباع هذه الأوامر، وسوف نتناول هذه الأوامر بالبيان فيما يأتي:

أولاً: أوامر الرسل عليهم السلام:

الرسول أرسلهم الحق سبحانه وتعالى
لإسعاد الناس وهدايتهم؛ ولذلك يمكن
إبراز أوامر الرسول كما يلي:

١. عبادة الله واجتناب عبادة
الطاغوت.

قال تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ
وَرَهْبَنَهُمْ أَزْكَاءَ مِنَ دُوبِ اللَّهِ
وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا
لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:

. [۳۱]

إن من الطبيعي أن يكون أول أمر للرسول لأقوامهم الأمر بعبادة الله وحده، وهذا ما جسده النبي صلى الله عليه وسلم.

يقول الإمام الألوسي: «وَمَا أَمْرًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا» جليل الشأن وهو الله سبحانه، ويطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه، فإن ذلك مناف

له استجابة لله تعالى.

قال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠] ^(١).

تكلّم الإمام ابن القيم كلامًا نفيسًا حول هذه الآية فقال رحمه الله: «إن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ولرسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله ولرسوله ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء، وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان؛ ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول» (٢).

(۱) التفسير الوسيط، طنطاوی ۷۳/۲.

(٢) التفسير القيم ٢٩٨/١.

الكلمة فيهم، والعقل المدبر لهم، فكلمة الأحبار والرهبان لهم هي الكلمة التي لا معقب عليها عندهم، حتى لكأنها كلمات الله عند المؤمنين بالله^(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا قِيلَ لَهُمْ **أَسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ ثُغُورًا**﴾ [الفرقان: ٦٠].

وكانهم يقولون: تأمرنا بألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، وتريد أن تأمرنا أيضاً بأن نسجد لهذا الرحمن، كأن المسألة بيننا وبينك ليس أمر التوحيد تدعو إليه، إنما أنت تعادي ألهتنا بآلهة أخرى، ومرامهم أنك تتحكم في عبادتنا، ولا تخالفنا في شركنا^(٣).

فالآية الكريمة تحكي ما جبل عليه أولئك المشركون من استهتار وتطاول وسوء أدب، عندما يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إخلاص العبادة لله عز وجل، وإلى السجود للرحمن الذي تعاظمت رحماته، وتكاثرت آلاؤه، ولقد بلغ من تطاول بعضهم أنهم كانوا يقولون: ما نعرف الرحمن إلا ذاك الذي باليامة، يعنون به مسيلمة الكذاب^(٤).

٢. الإخلاص.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧٤٣/٥.

(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/٥٣٠٧.

(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/٢١٥.

لعبادته جل شأنه، وأما إطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وسائر من أمر الله بطاعته فهي في الحقيقة إطاعة لله عز وجل، وما أمر الذين اتخذهم الكفرة أرباباً من المسيح عليه السلام والأحبار والرهبان إلا ليطيعوا أو ليوحّدوا الله تعالى، فكيف يصح أن يكونوا أرباباً وهم مأمورون مستعبدون مثلهم؟! ولا يخفى أن تخصيص العبادة به تعالى لا يتحقق إلا بتخصيص الطاعة أيضاً به تعالى، ومتى لم يخص به جل شأنه لم تخص العبادة به سبحانه ﴿سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له، أي: تنزيه عن الإشراف به في العبادة والطاعة، والمراد بالآية: اتخذ كل من الفريقين علماءهم - لا الكل - أرباباً من دون الله بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله تعالى، وتحليل ما حرمه سبحانه، وهو التفسير المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالآية ناعية على كثير من الفرق الضالة الذين تركوا كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لكلام علمائهم ورؤسائهم، والحق أحق بالاتباع، فمتى ظهر وجب على المسلم اتباعه^(١).

فهو اتهام لهم، وكشف عن وجه من وجوه الضلال الذي ركبه، وهو أنهم انقادوا لأحبارهم ورهبانهم، وجعلوا لهم

(١) روح المعاني ١/٧٥.

تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

﴿وَأَمْرًا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

ويقول الإمام النسفي: «والإخلاص عبارة عن النية الخالصة، وتجريدها عن شوائب الرياء، وهو تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه، والمخلص هو الذي يأتي بالحسن لحسنه، والواجب لوجوبه، والنية الخالصة لما كانت معتبرة كانت النية معتبرة، فقد دلت الآية على أن كل مأمور به فلا بد وأن يكون منوياً، فلا بد من اعتبار النية في جميع المأمورات»^(٤).

فالإخلاص: التصفية والإنقاء، أي: غير مشاركين في عبادته معه غيره، وحنفاء: جمع حنيف، وهو لقب للذي يؤمن بالله وحده دون شريك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَحْمَةً إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وهذا الوصف تأكيد لمعنى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، مع التذكير بأن ذلك هو دين إبراهيم عليه السلام الذي ملئت التوراة بتمجيده، واتباع هديه.

فمن أهم وأعظم ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البينة: ٥].

يقول الإمام أبو الفرج الجوزي: والمعنى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إلا أن يعبدوا الله، موحدين لا يعبدون سواه، ﴿حُنَفَاءَ﴾ على دين إبراهيم، ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة في أوقاتها، ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ عند وجوبها؛ وذلك الذي أمروا به هو دين القيمة، قال الزجاج: أي دين الأمة القيمة بالحق، ويكون المعنى: ذلك الدين دين الملة المستقيمة^(١).

قال الإمام ابن العربي: «أمر الله عباده بعبادته، وهي أداء الطاعة له بصفة القرية؛ وذلك بإخلاص النية بتجريد العمل عن كل شيء إلا لوجهه؛ وذلك هو الإخلاص، وإذا ثبت هذا فالنية واجبة في التوحيد؛ لأنها عبادة، فدخلت تحت هذا العموم دخول الصلاة»^(٢).

يقول الإمام الرازي: «ثبت أن المراد: وما أمروا إلا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين، والإخلاص عبارة عن النية الخالصة، والنية الخالصة لما كانت معتبرة كانت النية معتبرة، فقد دلت الآية على أن كل مأمور به فلا بد وأن يكون منوياً. . .»^(٣) ومنه قوله

(١) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٣٥٠/٢، زاد المسير، ابن الجوزي ٤٧٦/٤.

(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٦٤٣/٤.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ٢٢/٢٤٢.

(٤) انظر: مدارك التنزيل ٤٥٥/٤.

من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا الْفَلَاحَ﴾ [النحل: ٣٦]^(١).

٣. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يبين القرآن صفة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في كتب الأنبياء الذين بشروا أممهم ببعثته، وأمرهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم، يعرفها علماءهم وأحبارهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُثُ لَهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فمن صفة الرسول صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة، وهكذا كان حاله صلى الله عليه وسلم أنه لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأرעה سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٨١.

والمعروف ما تعرف العقول السليمة حسنه، وترتاح القلوب الطاهرة له لنفعه وموافقته للفطرة والمصلحة، بحيث لا يستطيع العاقل المنصف السليم الفطرة أن يردده، أو يعترض عليه إذا ورد الشرع به، والمنكر ما تنكره العقول السليمة، وتنفر منه القلوب، وتأباه على الوجه المذكور أيضًا^(٢).

٤. القتال.

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [٥٣].

يقول الإمام الطبري: يقول تعالى ذكره يعني: وحلف هؤلاء المعرضون عن حكم الله وحكم رسوله إذ دعوا إليه ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني: بأغلظ أيمانهم وأشدّها ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ يا محمد بالخروج إلى جهاد عدوك وعدو المؤمنين، أي: إذا أمرتهم بالقتال والاستعداد له ﴿لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ لا تحلفوا، فإن هذه ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ منكم فيها التكذيب، يعني: قل لهم -أيها الرسول الكريم- على سبيل السخرية والزجر، لا تقسموا على ما تقولون، فإن طاعتكم معروف أمرها، ومفروغ منها، فهي طاعة باللسان فقط.

أما الفعل فيكذبها؛ وذلك أن المنافقين

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ١٩٧.

الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه في الأمور، وهو يأتيه وحى السماء؛ لأنه أطيّب لأنفس القوم، وأن القوم إذا شاور بعضهم بعضاً، وأرادوا بذلك وجه الله، عزم لهم على أرشده^(٢).

وقال آخرون: إنما أمره الله بمشاورة أصحابه فيما أمره بمشاورة، مع إغناؤه بتقويمه إياه، وتدبيره أسبابه عن آرائهم، ليتبعه المؤمنون من بعده فيما حزبهم من أمر دينهم، ويستنوا بسننه صلى الله عليه وسلم في ذلك، ويحتذوا المثل الذي رآوه يفعل في حياته من مشاورته في أموره - مع المنزلة التي هو بها من الله - أصحابه وأتباعه في الأمر ينزل بهم من أمر دينهم ودنياهم، فيتشاوروا بينهم، ثم يصدروا عما اجتمع عليه ملوهم؛ لأن المؤمنين إذا تشاوروا في أمور دينهم متبعين الحق في ذلك لم يخلهم الله عز وجل من لطفه وتوفيقه للصواب من الرأي والقول فيه، قالوا: وذلك نظير قوله عز وجل الذي مدح به أهل الإيمان: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

ثم قال: وأولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال: إن الله عز وجل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه فيما حزبه من أمر عدوه، ومكايد حربه، تألفاً منه بذلك من لم تكن بصيرته بالإسلام البصيرة التي

كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أينما كنت نكن معك، لئن خرجت خرجنا، وإن أقمنا أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا. . . ثم قال الحق: إن الله ذو خبرة بما تعملون من طاعتكم الله ورسوله، أو خلافكم أمرهما، أو غير ذلك من أموركم، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو مجازيكم بكل ذلك^(١).

٥. ثمرة الشورى.

يقول تعالى مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يقول الإمام الطبري: «اختلف أهل التأويل في المعنى الذي من أجله أمر تعالى ذكره نبيه صلى الله عليه وسلم أن يشاورهم، وما المعنى الذي أمره أن يشاورهم فيه؟

فقال بعضهم: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ بمشاورة أصحابه في مكايد الحرب، وعند لقاء العدو، تطييباً منه بذلك أنفسهم، وتألفاً لهم على دينهم؛ وليروا أنه يسمع منهم، ويستعين بهم، وإن كان الله عز وجل قد أغناه بتدبيره له أموره، وسياسته إياه وتقويمه أسبابه عنهم، فأمر الله عز وجل نبيه صلى

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/٢٠٦، معالم التنزيل، البغوي ٦/٥٧.

(٢) جامع البيان ٧/٣٤٤.

عليهم في الدنيا، بخلاف ما عليه أكثر الناس، وقيل: كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم.

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

وأيضاً فهم أحق أن يتصدق عليهم، فوجب أن يكونوا بالإحسان الديني أولى، فأما الزكاة فعن ابن عباس رضي الله عنه أنها طاعة الله تعالى والإخلاص، فكانه تأوله على ما يزكو به الفاعل عند ربه، والظاهر أنه إذا قرنت الزكاة إلى الصلاة أن يراد بها الصدقات الواجبة، وكان يعرف من خاصة أهله أن يلزمهم الزكاة، فيأمرهم بذلك، أو يأمرهم أن يتبرعوا بالصدقات على الفقراء، ورابعها: قوله: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ وهو في نهاية المدح؛ لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات^(١).

ثانياً: أوامر المؤمنين:

لا شك أن أوامر المؤمنين ستكون متفقة مع المنهج النبوي الذي يحقق السعادة لمتبعها في الدنيا والآخرة، ويمكن إيضاح أوامر المؤمنين كما يلي:

يؤمن عليه معها فتنة الشيطان وتعريفاً منه أمته مأتى الأمور التي تحزبهم من بعده ومطلبها؛ ليقننوا به في ذلك عند النوازل التي تنزل بهم، فيتشاوروا فيما بينهم، كما كانوا يرونه في حياته صلى الله عليه وسلم يفعلها، فأما النبي صلى الله عليه وسلم فإن الله كان يعرفه مطالب وجوه ما حزبه من الأمور بوحيه، أو إلهامه إياه صواب ذلك، وأما أمته فإنهم إذا تشاوروا مستنين بفعله في ذلك على تصديق وتأخٍ للحق، وإرادة جميعهم للصواب، من غير ميل إلى هوى، ولا حيد عن هدى، فالله مسددهم وموفقهم^(٢).

٦. الأمر بالصلاة والزكاة.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

يقول الإمام الرازي: «قوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ والأقرب في الأهل أن المراد به من يلزمه أن يؤدي إليه الشرع، فيدخل فيه كل أمته من حيث لزمه في جميعهم ما يلزم المرء في أهله خاصة، هذا إذا حمل الأمر على المفروض من الصلاة والزكاة، فإن حمل على الندب فيهما كان المراد أنه كما كان يتعهد بالليل يأمر أهله، أي: من كان في داره في ذلك الوقت بذلك، وكان نظره لهم في الدين يغلب على شفقتهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣٤٤/٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٣٤١/١.

(٢) مفاتيح الغيب ٢١/٥٥٠.

١. الأمر بالمعروف.

قال تعالى متحدثاً عن صفات المؤمنين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

يذكر الحق سبحانه أوصاف المؤمنين وأعمالهم الحسنة، وما أعد لهم من أنواع الكرامات والخيرات في الدنيا والآخرة، فمن أوصافهم: أنهم يأمرُونَ بالمعروف، وينهون عن المنكر، فقال تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: يأمرُونَ الناس بكل خير وجميل يرضي الله، وينهونهم على كل قبيح يسخط الله، فهم على عكس المنافقين الذين يأمرُونَ بالمنكر، وينهون عن المعروف^(١).

وهذا ما أمر به لقمان ابنه بقوله: ﴿يَبْنِئْ أَقِيمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

فالمؤمن الحقيقي يتخذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أساساً ومنهجاً له بضوابط وأصول الشرع.

٢-٣. الصدقة والإصلاح بين الناس.

(١) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٥٠٩.

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

فقوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ﴾ قيل المراد بهم: قوم طعمة، وقال مجاهد: الآية عامة في حق جميع الناس، والنجوى: هي الإسرار في التدبير، وقيل: النجوى ما ينفرد بتدبيره قوم سراً كان أو جهراً، فمعنى الآية: لا خير في كثير مما يدبرونه بينهم، والله تعالى جعل النجوى مظنة الإثم والشر غالباً، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا نَنصِحُكُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعَدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالنَّقْوَىٰ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩].

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: إلا في نجوى من أمر بصدقة، فالنجوى تكون فعلاً، وقيل: هذا استثناء منقطع، يعني: لكن من أمر بصدقة، وقيل: النجوى ها هنا الرجال المتناجون، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجَّوْا﴾ [الإسراء: ٤٧].

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: حث عليها ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: بطاعة الله وما يعرفه الشرع، وأعمال البر كلها معروف؛ لأن العقول تعرفها.

فينبغي لمن يقدر على إسداء المعروف أن يعجله حذار فواته، ويبادر به خيفة عجزه؛

وليعلم أنه من فرض زمانه، وغنائم إمكانه، ولا يهمله ثقة بالقدرة عليه، فكم من واثق بالقدرة، ففاتت، فأعقبت ندماً.

ويقول الإمام الرازي: وإنما ذكر الله هذه الأقسام الثلاثة، وذلك لأن عمل الخير إما أن يكون بإيصال المنفعة، أو بدفع المضرة، أما إيصال الخير، فإما أن يكون من الخيرات الجسمانية، وهو إعطاء المال، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ وإما أن يكون من الخيرات الروحانية، وهو عبارة عن تكميل القوة النظرية بالعلوم، أو تكميل القوة العملية بالأفعال الحسنة، ومجموعهما عبارة عن الأمر بالمعروف، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وأما إزالة الضرر، فإليها الإشارة بقوله: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ فثبت أن مجامع الخيرات المذكورة في هذه الآية (١).

فلقد حض القرآن على الإصلاح بين الناس سواء أكانوا جماعات أم أفراداً؛ لأن التخاصم والتنازع يؤدي إلى انتشار العداوات والمفاسد بين الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٢١].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إلا

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٨٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢١٨.

أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة؟) قال: قلنا: بلى، قال: (إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة) (٢).

٤. ثمرة الشورى.

قال: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

يقول الإمام ابن عاشور: «إذ قد كانت الشورى مفضية إلى الرشد والصواب، وكان من أفضل آثارها أن اهتدى بسببها الأنصار إلى الإسلام؛ أثنى الله بها على الإطلاق دون تقييد بالشورى الخاصة التي تشاور بها الأنصار في الإيمان، وأي أمر أعظم من أمر الإيمان» (٣).

فمن ثمرة أمرهم بالشورى: أنه لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعاً عن اجتماعهم وتوافقهم وتواددهم وتحاببهم، وكمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمراً من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها اجتمعوا لها، وتشاوروا، وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت

(٢) أخرجه أحمد ٤٥/ ٥٠٠، رقم ٢٧٥٠٨، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، ٤/ ٢٨٠، رقم ٤٩١٩، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، باب سوء ذات البين، ٤/ ٢٤٤، رقم ٢٥٠٩، وصححه.

وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٠٦/ ١، رقم ٢٥٩٥.

(٣) التحرير والتنوير ٢٥/ ١١٢.

الإيمان بألستهم، ويسرون الكفر بالله ورسوله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بعضهم على دين بعض، وقال مقاتل: بعضهم أولياء بعض، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ وهو الكفر، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ وهو الإيمان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقِضُونَ أَيَّدِيَهُمْ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: يقضونها عن الإنفاق في سبيل الله، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد.

والثاني: عن كل خير، قاله قتادة.

والثالث: عن الجهاد في سبيل الله.

والرابع: عن رفعها في الدعاء إلى الله، ذكرهما الماوردي^(٢).

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: عاملهم معاملة من نسيتهم، كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِكُ مَا كَانِ يَنتَهِ لِقَاءَ يُومِ كَذَا﴾ [الحج: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة^(٣).

قال الإمام الرازي: «اعلم أن هذا شرح لنوع آخر من أنواع فضائحهم وقبائحهم، والمقصود: بيان أن إنائهم كذكورهم في تلك الأعمال المنكرة، والأفعال الخبيثة،

لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها؛ وذلك كالرأي في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عموماً، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية^(١).

ولذلك حث النبي صلى الله عليه وسلم على الاتمرار بالمعروف بين الزوجين، فقال: ﴿وَأْتِمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسْتَخِصْ لَكُمْ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦].

ثالثاً: أوامر المنافقين:

مما لا يحتاج إلى بيان أن أوامر المنافقين تنصب في جانب الشر والفساد، وتوصل متبعها إلى الهلاك والخسران، وهذا ما بينه القرآن من خلال إبرازه لأوامر المنافقين، والمظهرة كما يلي:

١. الأمر بالمنكر.

قال تعالى: ﴿وَالْمُنَافِقَتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقِضُونَ أَيَّدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

يقول تعالى ذكره: في شأن المنافقين والمنافقات، وهم الذين يظهرون للمؤمنين

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٣.

(١) انظر: التيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٥٩.

أي: في صفة النفاق؛ وذلك كما يقول إنسان لآخر: أنت مني وأنا منك، أي: أمرنا واحد لا مباينة فيه ولا مخالفة»^(١).

قال الإمام الزمخشري: أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم: ﴿وَيَخْلُقُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦].

وتقرير قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِتَكُونُوا﴾ ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين بقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُكْرِ﴾ كالكفر والمعاصي ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ كالإيمان والطاعات^(٢).

٢. الأمر بالبخل.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

وقال: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤].

فالحق سبحانه يقول: إن الله لا يحب المختال الفخور، الذي يبخل، ويأمر الناس بالبخل، و(البخل) في كلام العرب: منع الرجل سائله ما لديه، وعنده ما فضل عنه، و(الشح): أن يشح على ما في أيدي الناس،

ويحب أن يكون له ما في أيدي الناس بالحل والحرام، لا يقيع، وقد قيل: إن الله جل ثناؤه عنى بقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ الذين كتموا اسم محمد صلى الله عليه وسلم وصفته من اليهود، ولم يبينوه للناس، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل.

والمراد بهذه الآية في قول ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: اليهود، فإنهم جمعوا بين الاختيال والفخر والبخل بالمال وكتمان ما أنزل الله من التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: المراد المنافقون الذين كان إنفاقهم وإيمانهم تقية، والمعنى: إن الله لا يحب كل مختال فخور، ولا الذين يبخلون ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ توعده المؤمنين الباخلين من توعده الكافرين بأن جعل الأول عدم المحبة، والثاني عذابًا مهينًا^(٣).

٣. أمر الغير بالبر دون النفس.

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

اختلف العلماء في المراد بالبر في هذا الموضع على وجوه، أحدها: وهو قول السدي: أنهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وينهونهم عن معصية الله، وهم كانوا

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩٣.

(١) مفاتيح الغيب، ٤/ ٤٧٠.

(٢) الكشف، ٤/ ٢٨٧.

دُونَ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ [الأنبياء: ٦٧].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (رأيت ليلة أسري بي رجلاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك، يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب) (٤).

رابعاً: أوامر الجبابة والمسرفين:

تتمثل أوامر الجبابة والمسرفين كما يلي:

١. أمرهم بالكفر بالله.

كما قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً﴾ [سبأ: ٣٣].

فالآية تشير إلى ما قاله الأتباع للرؤساء في الضلال: قالوا لهم: صدنا مكرم بنا، وخذاعكم في الليل والنهار حين كنتم تأمروننا أن نكفر بالله، ونجعل له أمثالا وأشباهاً في العبادة، وإجمال ذلك: ما صدنا إلا مكرم أيها الرؤساء بالليل والنهار حتى أزلتمونا عن عبادة الله، فأنتم كنتم تغروننا

(٣) انظر: مفاتيح الغيب ٣/ ٤٨٨.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ١٥٨/٢١، رقم ١٣٥١٥، وابن حبان في صحيحه ١/ ٢٤٩، رقم ٥٣.

وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ١/ ١٨٣.

يتركون الطاعة، ويقدمون على المعصية... وسادسها: لعل المنافقين من اليهود كانوا يأمرون باتباع محمد صلى الله عليه وسلم في الظاهر، ثم إنهم كانوا في قلوبهم منكروين له فويخهم الله تعالى عليه، وسابعاً: أن اليهود كانوا يأمرون غيرهم باتباع التوراة، ثم إنهم خالفوه؛ لأنهم وجدوا فيها ما يدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إنهم ما آمنوا به (١).

أي: أتأمرون الناس بالطاعة، وتتركون أنفسكم فلا تتبعونه، وأنتم تقرؤون التوراة فيها نعتة وصفته، أفلا تعقلون أنه حق فتبعضونه؟ والعقل مأخوذ من عقال الدابة، وهو ما يشد به ركة البعير فيمنعه من الشرود، فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود (٢).

فالمراد بقوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ وتنسون أنفسكم أنكم تغفلون عن حق أنفسكم، وتعطلون عما لها فيه من النفع، أما قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ فمعناه: تقرؤون التوراة وتدرسونها، وتعلمون بما فيها من الحث على أفعال البر والإعراض عن أفعال الإثم، وأما قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فهو تعجب للعقلاء من أفعالهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٨٨.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٨٩.

وتمنوننا وتخبروننا أننا على الهدى، وإنا على شيء، وكل ذلك باطل وكذب، وهذا تطاول من المستضعفين على مستكبريهم لما رأوا قلة غنائهم عنهم واحتقروهم، حين علموا كذبهم وبهتانهم، وقد حكي نظير ذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ نَبَرَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦].

والمراد بالذين استضعفوا: الأتباع والعامّة من الناس، والمراد بالذين استكبروا: الزعماء والقادة والرؤساء^(١).

وهذا ما فعله فرعون وتبعه فيه قومه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۖ إِنَّكَ فِرْعَوْنُ وَمَلَأِيهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٦-٩٧].

قال الزجاج: يعني: بعلاماتنا التي تدل على صحة نبوته.

﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: حجة بينة، ثم قال: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: شأنه وحاله، وهو ما أمرهم به من عبادته واتخاذها إلهاً، وخالفوا أمر الله تعالى ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: مرشد إلى خير^(٢). أو بسديد يؤدي إلى صواب.

٢. الأمر بعبادة غير الله.

كما قال: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُوكَ أَعْبُدُ﴾

(١) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٣/ ٧٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٠٩.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٩٩، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٩٣.

أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

وهذه كنتيجة لما قبلها، أو هي من لاوازم الأمر بالكفر بالله.

يقول تعالى ذكره لنبیه: قل يا محمد لمشركي قومك، الداعين إلى عبادة الأوثان: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ أيها الجاهلون بالله ﴿تَأْمُرُونَ﴾ أن ﴿أَعْبُدُ﴾ ولا تصلح العبادة لشيء سواه؛ وذلك حين قال له المشركون: استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك، قال مقاتل: وذلك أن كفار قريش دعوه إلى دين آبائهم^(٣).

وأقول: نظير هذه الآية، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ أَمْ يَخْشَى فَاظِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

وإنما وصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقاً للأشياء، وبكونه مالِكاً لمقاليذ السماوات والأرض، وظاهر كون هذه الأصنام جمادات أنها لا تضر ولا تنفع، ومن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة، واشتغل بعبادة هذه الأجسام الخسيسة، فقد بلغ في الجهل مبلغاً لا مزيد عليه؛ فلهذا السبب قال: ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ولا شك أن وصفهم بهذا الأمر لائق بهذا الموضع^(٤).

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٢٢.

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٣٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٤٧١.

٣. الأمر بالفاحشة.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَسَجَنَ لَكُمْ لِكُونًا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

فتقول امرأة العزيز لسيدنا يوسف عليه السلام: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ﴾ يعني: وإن لم يطاوعني فيما دعوته إليه، أي: فيما قد أمرته فيما تقدم ذكره عند أن أغلقت الأبواب، وقالت: هيت لك، يعني حينما طلبت منه الفحشاء فأبى، ولئن لم يفعل ما أمره به مستقبلاً ﴿لَسَجَنَ﴾ أي: ليعاقبن بالسجن والحبس ﴿وَلِكُونًا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ يعني: من الأذلاء المهانين، فقال النسوة ليوسف: أطع مولاتك فيما دعتك إليه، فاختار يوسف السجن على المعصية حين توعده المرأة بذلك، والمراد: أن يوسف عليه السلام إن لم يوافقها على مرادها يوقع في السجن وفي الصغار، ومعلوم أن التوعد بالصغار له تأثير عظيم في حق من كان رفيع النفس، عظيم الخطر، مثل يوسف عليه السلام^(١).

٤. يقتلون الذين يأمرون بالقسط.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ

الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

قال الإمام القرطبي: «قال أبو العباس المبرد: كان ناس من بني إسرائيل جاءهم النبيون يدعونهم إلى الله عز وجل فقتلوه، فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمرهم بالإسلام فقتلوه، ففيهم نزلت هذه الآية، وكذلك قال معقل بن أبي مسكين: كانت الأنبياء -صلوات الله عليهم- تجيء إلى بني إسرائيل بغير كتاب فيقتلونهم، فيقوم قوم ممن اتبعهم فيأمرهم بالقسط، أي بالعدل، فيقتلون»^(٢).

وهذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب فيما ارتكبه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً، التي بلغتهم إياها الرسل، استكباراً عليهم، وعناداً لهم، وتعاضماً على الحق، واستنكافاً عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ وهذا هو غاية الكبر^(٣).

ومثله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْقَرْيَةِ يَسْأَلُ قَالَ يَمْوَسَّىٰ ابْنَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٥١، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٢٦.

جزاء اتباع الأمر الإنساني

لاشك أن اتباع أمر الأنبياء والمؤمنين يتبعه الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، أما اتباع أمر المنافقين والكافرين سيكون عاقبته الخسران والضلال المبين، وهذا ما بينه القرآن الكريم كما يلي:

أولاً: جزاء اتباع أمر المؤمنين والأنبياء: ١. الوصف بالفلاح.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَاَلَّذِينَ ذَرَبُوا آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

جاء في تفسير الخازن: ﴿فَاَلَّذِينَ ذَرَبُوا﴾ يعني: بمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ يعني: وقروه وعظموه، وأصل التعزيز: المنع والنصرة، وتعزيز النبي صلى الله عليه وسلم تعظيمه وإجلاله، ودفع الأعداء عنه، وهو قوله ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ يعني: على أعدائه ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ يعني: القرآن، سمي القرآن نوراً

فَأَخْرَجَ إِيَّيْكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿ [القصص: ٢٠].

٥. الإفساد في الأرض من الشرك ومخالفة الحق.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٠-١٥٢].

يقول الإمام ابن كثير: أي: «أقبلوا على عمل ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتوحيده وتعبده وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني: رؤساءهم وكبراءهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر، ومخالفة الحق» (١).

ويقول الإمام الشوكاني: «﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: المشركين، وقيل: الذين عقروا الناقة، ثم وصف هؤلاء المسرفين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي: ذلك دأبهم يفعلون الفساد في الأرض، ولا يصدر منهم الإصلاح البته» (٢).

(١) المصدر السابق ٦/ ١٥٦.

(٢) فتح القدير ٤/ ١٣٠.

بالمعروف، والنهي عن المنكر، فالإيمان بالرسول وما يقتضيه ذلك من اتباع أمره يكون لصاحبه الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.

٢. نيل الأجر العظيم.

قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّبَوْتِهِمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

يقول الإمام البغوي: يعني: ومن يفعل هذه الأشياء التي ذكرها - وهي الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس - ابتغاء مرضاة الله، أي: طلب رضاه، وخرج عنه من فعل ذلك رياء أو ترؤسًا فسوف نؤتيه في الآخرة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾. قرأ أبو عمرو وحمزة: يؤتيه (بالياء، يعني: يؤتيه الله، وقرأ الآخرون بالنون، أي: ثوابًا كثيرًا واسعًا. و(سوف) هنا لتأكيد الوقوع في المستقبل (٣).

٣. نيل الرحمة من الله.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ

لأن به يستنير قلب المؤمن، فيخرج به من ظلمات الشك والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني: هم الناجون الفائزون بالهداية، أي: هم الفائزون بالمطلوب في الدنيا والآخرة (١).

ويقول الإمام أبو زهرة: «فقد حكم الله سبحانه وتعالى على الذين قاموا بهذه الصفات - ومن بين تلك الصفات اتباع أمر النبي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - بأنهم الفائزون في الدنيا باتباع الحق، وأن حياتهم كلها فاضلة، وأن تكون حياتهم في الآخرة نعيمًا مقيمًا، ورضوانًا من الله العزيز الحكيم، وهو أكبر الفوز العظيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والإشارة إلى الصفات يفيد أنها علة الحكم وسببه، أي: بسبب هذه الصفات ينالون الفلاح في الدنيا والآخرة؛ لأن الهداية والاستقامة فلاح لا يدركه إلا من استقامت إلى الحق نفوسهم» (٢).

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل: عمران ١٠٤].

قلت: فلاشك أن الإيمان بالنبي يتبعه تنفيذ ما أمر به، ومن جملة ما أمر به الأمر

(١) لباب التأويل ٢/ ٢٥٨.

(٢) زهرة التفاسير ٦/ ٢٩٧٤.

(٣) معالم التنزيل ٢/ ٢٨٧.

سَيَرَحْمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَزِيرٌ حَكِيمٌ ﴿التوبة: ٧١﴾

يقول الإمام ابن كثير: أي: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، والتي منها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ﴿إِنَّ اللَّهَ غَزِيرٌ﴾ أي: من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، والسين في قوله: ﴿سَيَرَحْمُهُمُ﴾ مدخلة في الوعد مهلة لتكون النفوس تتنعم برجائه، وفضله تعالى زعيم بالإنجاز، والإشارة للدلالة على أن ما سيرد بعد اسم الإشارة صاروا أحرى به من أجل الأوصاف المذكورة قبل اسم الإشارة^(١).

٤. البشرى من الله.

قال تعالى: ﴿التَّكْوِينُ الْكَيْدُوتُ الْحَمْدُوتُ السَّخَرُوتُ الرَّكْعُوتُ السَّجْدُوتُ الْأَمْرُوتُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُوتُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفْظُوتُ الْحُدُودُ وَاللَّهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

ذكر الله تعالى في هذه الآية تسعة أوصاف للمؤمنين، الستة الأولى منها تتعلق بمعاملة الخالق، والوصفان السابع والثامن يتعلقان بمعاملة المخلوق، والوصف التاسع يعم القبيلين^(٢).

فمن ضمن أوصاف المؤمنين: أن يتشرب

ويبرز المجتمع الفاضل الذي يقوم على الأمر بالمعروف، أي: كل ما هو معروف لا تنكره العقول السليمة، والنهي عن كل أمر تنكره العقول السليمة، فإن المجتمع الفاضل ظل لكل خلق سليم ينمو في ظله الوارف؛ ولذا كانت أمة محمد أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيه أناس يدعون الناس إلى الرشd والهدى، وينهونهم عن الفساد والردى، فقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠]^(٣).

وقال البيضاوي: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: وبشر به هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل - والتي من بينها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -، ووضع المؤمنين موضع ضمير (هم) للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشر به للتعظيم، وللايذان بخروجه عن حد البيان، كأنه قيل: وبشرهم بما يجلب عن إحاطة الأفهام، وتعبير الكلام^(٤). أو بشر أيها الرسول المؤمنين المتصفين بهذه الصفات - ومن بينهم الأمرون بالمعروف والناهون عن

(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٤٥٧.

(٤) أنوار التنزيل ٣/ ٩٩.

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٧٥.

(٢) انظر: حاشية الجمل ٢/ ٣٢١.

الإخبار بما يظهر سرور المخبر (بفتح الباء) وهو هنا مستعمل في ضد حقيقته؛ إذ أريد به الإخبار بحصول العذاب، وهو موجب لحزن المخبرين، فهذا الاستعمال في الضد معدود عند علماء البيان من الاستعارة، ويسمونها تهكمية؛ لأن تشبيه الضد بضده لا يروج في عقل أحد إلا على معنى التهكم أو التمليح^(٣).

٢. الأغلال ونار جهنم.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ۖ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

قال الإمام الطبري: «قوله: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وغلت أيدي الكافرين بالله»^(٤)، والأغلال: هي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم^(٥) في جهنم، يقول جل ثناؤه: ما يفعل الله ذلك بهم إلا ثواباً لأعمالهم الخبيثة التي كانوا في الدنيا يعملونها، ومكافأة لهم عليها، كل بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

المنكر - بخيري الدنيا والآخرة، وخصت تلك الخلائع بالذكر لأن بها تكون المحافظة على حدود الله^(١).

ثانياً: جزاء اتباع أمر الجبابرة والمسرفين ما يلي:

١. العذاب الأليم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

يقول الإمام ابن كثير: «فلما تكبروا عن الحق، واستكبروا على الخلق، قابلهم الله على ذلك بالذلّة والصغار في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة، فقال: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: موجه مهين»^(٢).

والفاء في ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ فاء الجواب المستعملة في الشرط، دخلت على خبر (إن) لأن اسم (إن) وهو موصول تضمن معنى الشرط، إشارة إلى أنه ليس المقصود قوماً معينين، بل كل من يتصف بالصلة فجزاؤه أن يعلم أن له عذاباً أليماً. واستعمل (بشرهم) في معنى أُنذَرهم تهكماً، وحقيقة التبشير:

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٠٧٥.

(٤) جامع البيان ٢٠/ ٤٠٩.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٢٠.

(١) انظر: تفسير المراغي ١١/ ٣٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٨٥.

[الأعراف: ٣٨].

أي: إنما نجازي الفريقين وأمثالهم، كل بحسب عمله، وبسبب ما اقترفه من الشرك بالله والإثم، فللقادة عذاب يناسبهم، وللاتباع عذاب آخر يلائمهم، ولا ظلم ولا تحامل، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

ومما لا شك فيه أن القادة إلى الضلال أسوأ من الاتباع، فهم الذين يستحقون مضاعفة العذاب وأليم العقاب، ولكن يشاركهم الاتباع في هذا العذاب؛ لأنهم عطلوا نعمة العقل والوعي، وقلدوا غيرهم تقليدًا أعمى، وكان جديرًا بهم أن يتحرروا من ربة التقليد، فكانت عقائدهم فاسدة، وأعمالهم سيئة كقاداتهم، فاستحقوا جميعًا التخليد في عذاب جهنم، وبئس المصير^(١).
٣. العذاب المهين.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

لقد ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية من الأحوال المذمومة ثلاثًا: أولها- كون الإنسان بخيلًا وهو المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ وثانيها: كونهم آمرين لغيرهم بالبخل، وهذا هو النهاية في حب البخل،

(١) انظر: الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢١٠٩.

وهو المراد بقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ﴾ وثالثها: قوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فيوهمون الفقر مع الغنى، والإعسار مع اليسار، والعجز مع الإمكان، ثم إن هذا الكتمان قد يقع على وجه يوجب الكفر، مثل أن يظهر الشكاية عن الله تعالى، ولا يرضى بالقضاء والقدر، وهذا ينتهي إلى حد الكفر؛ فلذلك قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ ومن قال: الآية مخصوصة باليهود فكلامه في هذا الموضوع ظاهر؛ لأن من كتم الدين والنبوة فهو كافر، ويمكن أيضًا أن يكون المراد من هذا الكافر من يكون كافرًا بالنعمة، لا من يكون كافرًا بالدين والشرع^(٢).

فهناك: توعده للمؤمنين الباخلين من توعده الكافرين بأن جعل الأول عدم المحبة، والثاني عذابًا مهينًا، أي: قد هيأنا من غاية قهرنا، وانتقامنا للكافرين لنعمنا كفرًا ناشئًا عن محض النفاق والشقاق، عذابًا طردًا وحرمانًا مؤلمًا، وتخذيلاً وإذلالاً مهينًا^(٣).

٤. الوصف بالفسق.

كما قال: ﴿الْمُتَفَقِّهُونَ وَالْمُتَفَقِّهَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٧٩.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

١٩٣/٥.

أوامر إبليس وذريته

أوضح القرآن الكريم أوامر إبليس لعنه الله وذريته وعاقبة اتباعها، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولاً: أوامر إبليس:

لا شك أن أوامر إبليس تتمثل في العقائد الفاسدة، والأحكام الباطلة التي تخالف منهاج الدين، ويتضح ذلك فيما يلي:

١. الأمر بتبتيك آذان الأنعام.

قال تعالى: ﴿وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ وَلَا مَلِئِينَهِمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَنْصَحْ أَذَانَ الْإِنْعَامِ﴾ [النساء: ١١٩].

البتك: القطع، والتبتيك للتكثير والتكرير، أي: لأحملنهم على أن يقطعوا آذان الأنعام، وكانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، وجاء الخامس ذكراً، وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها، وقال آخرون: المراد أنهم يقطعون آذان الأنعام نسكاً في عبادة الأوثان، فهم يظنون أن ذلك عبادة مع أنه في نفسه كفر وفسق، سول لهم إبليس أن هذا قرينة إلى الله تعالى، فهو كالأمر لهم الذي يجعل ما ليس بعبادة أصلاً بعبادة، وإن ذلك تشويه لما خلق الله سبحانه وتعالى (٢).

سُوا اللَّهَ فَتَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿التوبة: ٦٧﴾.

إن المنافقين هم الفاسقون هم الكاملون في الفسق الذي هو التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير، وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف به المنافقون حين بالغ في ذمهم، أي: أنهم الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة، فهذا تذييل قصد به المبالغة في ذمهم، وصيغة القصر في ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قصر ادعائي للمبالغة؛ لأنهم لما بلغوا النهاية في الفسوق جعل غيرهم كمن ليس بفاسق، والإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ﴾ لزيادة تقريرهم في الذهن لهذا الحكم؛ ولتكون الجملة مستقلة حتى تكون كالمثل (١).

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/٤٧٤، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/٢٢٣، مدارك التنزيل، النسفي ١/٣٩٧.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/٢٥٥.

الإسلام؛ ﴿لَا يَبْدِيلُ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]. وكذلك استعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس كمألاً، ولا يوجب لها من الله سبحانه وتعالى زلفى^(٢).

فتغيير الخلق يشمل التغيير المادي والمعنوي، وكان كل ذلك خضوعاً لأوامر الشيطان، فكانوا بهذا أولياءه، كما قال الإمام أبو زهرة^(٣).

ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه: (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإن الشياطين أتتهم فاجتالهم عن دينهم، فحرمت عليهم ما أحللت، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وأمرتهم أن يغيروا خلقي)^(٤).

٣. الأمر بالفحشاء والمنكر.

كما قال: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

يقول الإمام الرازي: «اعلم أنه تعالى لما رغب الإنسان في إنفاق أجود ما يملكه حذره بعد ذلك من وسوسة الشيطان، فقال: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ أي: يقال: إن أنفقت الأجود صرت فقيراً، فلا تبال بقوله،

يروي في ذلك أن أبا الأحوص من الصحابة أتى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان رث الهيئة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (هل لك من مال؟) قال: نعم؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (فإذا أتاك الله ما لا فليز عليك أثره) ثم قال عليه الصلاة والسلام: (هل تنتج إبل قومك صحاحاً أذائها، فتعمد إلى موسى فتشق أذائها، وتقول: هذه بحر -أي: جمع بحيرة- وتشق جلودها، وتقول: هذه صرم -جمع صريمة-) قال: أجل، قال: (كل ما أتاك الله حل، وموسى الله أحد من موساك، وساعد الله أشد من ساعدك)^(١).

٢. الأمر بتغيير خلق الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُرْمِمْهُمُ فَلْيُغَيِّرْ بَلَدَهُمُ﴾ [النساء: ١١٩].

يعني: يفقء عين الحامي، وإعفائه عن الركوب أو بالخضاء، وهو مباح في البهائم محظور في بني آدم، أو بالوشم، أو بنفي الأنساب واستلحاقها، أو بتغيير الشيب بالسواد، أو بالتحريم والتحليل، أو بالتخث، أو بتبديل فطرة الله التي هي دين

(١) أخرجه أحمد ٢٢٦/٢٥، رقم ١٥٨٩١، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو ٤٣٢/٣، رقم ٢٠٠٦.

وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ٥٩/٨.

(٢) انظر: أنوار التنزيل البيضاوي ٩٨/٢.

(٣) زهرة التفاسير ١٨٦٦/٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا ٢١٩٧/٤، رقم ٢٨٦٥.

وبعثه لهم على الشر تسفيهاً لرأيهم، وتحقيراً لشأنهم، والسوء والفحشاء ما أنكره العقل، واستقبحه الشرع، والعطف لاختلاف الوصفين، فإنه سوء لاغتمام العاقل به، وفحشاء باستقباحه إياه.

وقيل: السوء يعم القبائح، والفحشاء ما يتجاوز الحد في القبح من الكبائر.

وقيل: الأول ما لا حد فيه، والثاني: ما شرع فيه الحد، فالسوء ما يسوء صاحبه ويخزيه، والفحشاء يعني بها المعاصي، وما قبح من قول أو فعل^(٣).

وقال الإمام ابن كثير: «أي: إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فدخل في هذا كل كافر، وكل مبتدع أيضاً»^(٤).

ونظير ذلك قوله: ﴿يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَنِيعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَبْغِ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [٢١].

ثانياً: عاقبة اتباع أوامر إبليس وذريته في الدنيا والآخرة:

يتمثل في الخسران المبين في الدارين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا ضَلَالَتُهُمْ وَلَا مُبِينَتُهُمْ وَلَا مُرْتَبَهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ أَدَاكُ الْأَنْعَامِ وَلَا مُرْتَبَهُمْ فَلْيَعْبُرْ خَلْقُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذْ

فإن الرحمن يعدكم مغفرة منه...، ثم قال: أما قوله: (الفحشاء) ففيه وجوه، الأول: أن الفحشاء هي البخل ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: ويغريكم على البخل إغراء الأمر للمأمور.

الوجه الثاني: في تفسير الفحشاء، وهو أنه يقول: لا تنفق الجيد من مالك في طاعة الله، لئلا تصير فقيراً، فإذا أطاع الرجل الشيطان في ذلك زاد الشيطان، فيمنعه من الإنفاق في الكلية حتى لا يعطي لا الجيد ولا الرديء، وحتى يمنع الحقوق الواجبة، فلا يؤدي الزكاة، ولا يصل الرحم، ولا يرد الوديعة، فإذا صار هكذا سقط وقع الذنوب عن قلبه، ويصير غير مبال بارتكابها، وهناك يتسع الخرق، ويصير مقدماً على كل الذنوب؛ وذلك هو الفحشاء^(١).

وقال الإمام ابن كثير: «﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم، ومخالفة الأخلاق»^(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

وهذه الآية بيان لعداوته، ووجوب التحرز عن متابعتها، واستعير الأمر لتزيينه

(٣) انظر: أنوار التنزيل البيضاوي ١/ ١١٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٨٠.

(١) مفاتيح الغيب ٧/ ٥٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٧٠٠.

ولا استدراك لفاتها^(٣).

موضوعات ذات صلة:

الحرام، الحلال

الشَّيْطَانُ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ [النساء: ١١٩].

قال البيضاوي: «يعني: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بإثاره ما يدعو إليه على ما أمر الله به ومجاوزته عن طاعة الله سبحانه وتعالى إلى طاعته، ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ إذا ضيع رأس ماله، وبدل مكانه من الجنة بمكان من النار، فهذا الخسران في غاية الظهور والرداءة بما تعطيه صيغة الفعلان^(١).

فمن يوالي الشيطان فيطيعه مع أنه متמרّد عن الحق، داع إلى الشر، ويترك الحق وأمر الله، فإنه بهذا يخسر خسراناً واضحاً، يخسر الحق فلا يتبعه، ويرتكب الشر، ويترك المعقول إلى المرذول، ويمسح فطرة الله تعالى، وتنحرف نفسه، ويلتوي تفكيره، وتشوه إنسانيته؛ وذلك خزي في الدنيا ووراء عذاب في الآخرة، وأي: خسارة أعظم من هذه الخسارة وأوضح منها^(٢).

وهكذا يتبين لنا: أن طاعة الله تعالى تفيد المنافع العظيمة الدائمة، الخالصة عن شوائب الضرر، وطاعة الشيطان تفيد المنافع القليلة المنقطعة، المشوبة بالغموم والأحزان، ويعمها العذاب الدائم، وهذا هو الخسار المطلق؛ وتلك خسارة لا جبر لها،

(٣) انظر: الباب في علوم القرآن، ابن عادل ٣٧/٧.

(١) أنوار التنزيل ٩٨/٢.
(٢) زهرة التفاسير ١٨٦٦/٤.